تشيخوف

نجاتي صدقي

الكتاب: تشيخوف

الكاتب: نجاتي صدقي

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

تشيخوف / نجاتي صدقي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٢٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٧ – ٦٩٢ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٥٣٣٨ / ٢٠٢٣

تشيخوف

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تمهيد

ما إن صدر كتاب «بوشكين» وانتشر بين القراء حتى تفضل عدد كبير من أدباء البلاد العربية وكتابها وشعرائها، وحثني، إما بالمراسلات الخاصة أو على صفحات المجلات، أن أضع في العربية مؤلفاً جديداً يستمد مادته من الآداب الروسية الكلاسيكية، فوقع اختياري على الدكتور أنطون تشيخوف، مع أنه أكثر الكتاب الروس انتشاراً في الأدب العربي الحديث.

وكثيراً ما يلجأ كتاب القصة في البلاد العربية اليوم إلى تشيخوف في محاولتهم وضع قصص محلية نابضة بالحياة، ملأى بالصور الفنية، غنية بالألوان الزاهية، طافحة بالوقائع والمحسوسات خالية من الثرثرة ولغو الكلام، وهذا ما حدا بي أن أترجم لخالق القصة الروسية القصيرة، وأبين مكانته بين أدباء الروس العظام.

ويجدر بي أن أذكر في هذا المضمار أنني لست أول من يعرب صفحات من الأدب الروسي من مصادره الأصلية مباشرة، فهناك فريق من الأدباء الذين تخرجوا من المعهد الروسي التبشيري في الناصرة (فلسطين) في أوائل هذا القرن، قد ترجموا لتشخيوف، وتولستوي، وتورغينيف، وغيرهم، إبان الحكم العثماني، إلا إن ترجماتهم هذه كانت يسيرة جداً، وفيها من حرية التصرف ما فيها. زد على ذلك ما تركته الخطة التبشيرية التي تمشى عليها معهد الناصرة من أثر في بعض أولئك الأدباء، مما أدى إلى حصرهم في نطاق محدود من التفكير الأدبي الكنسي، والدليل على ذلك أنه ما إن

تدهورت روسيا القيصرية سنة ١٩١٧ وزال شبحها عن الشرق العربي حتى نفض أولئك الأدباء أيديهم من الآداب الروسية. وبعد مضي ربع قرن من الزمن نسوا اللغة الروسية على وجه التقريب.

لقد انتقيت لكتابي هذا مجموعة من مسرحيات تشيخوف من ذوات الفصل الواحد، كما انتقيت له طائفة من قصصه الروسية الصميمة، ونقلتها إلى اللغة العربية، محافظاً على روح المؤلف ومزاجه وتعابيره، بحيث لا يتعذر على القارىء العربي أن يلمس أنه يطالع أدباً غير أدبه، ويشاهد مجتمعاً غير مجتمعه.

وقدمت في مطلع الكتاب دراسة عامة لحياة تشيخوف وتآليفه، ليستعين بها القارىء على تتبع مراحل تفكير ذلك العبقري الروسي، وإدراك كنه مسرحياته وقصصه.

فعسى أن أكون قد أحسنت اختيار المؤلف، وأصبت في انتقاء بعض مآثره الخالدة.

نجاتي صدقي

أنطون بافلوفتش تشيخوف

حياته، تآليفه، اتجاهاته الأدبية

تاغنروغ!

ومن منا لم يسمع بهذه المدينة إبان الحرب الألمانية السوفياتية؟ أجل! إن تاغنروغ هذه التي تقع في أقصى شمال بحر آزوف، وهي مسقط رأس القصصي والكاتب المسرحي العالمي أنطون بافلوفتش تشيخوف.

ولد في السابع عشر من شهر يناير سنة ١٨٦٠، وكان جد لأبيه رقيقاً للسادة تشرتكوف. أما أبوه فكان وكيلاً لأملاك خاصة، ثم تاجراً. وكانت أمه أوجيني ياكوفليفا تنتمي إلى أسرة عريقة في التجارة معروفة بأسرة موروزوف.

تلقى أنطون علومه الأولية في المدرسة اليونانية في تاغنروغ التابعة لكنيسة القصر قسطنطين، ثم تدرج منها إلى المدرسة الثانوية القائمة في المدينة. وقد جاء في مذكرات أخيه ميخائيل تشيخوف أن زملاء أنطون في المدرسة كانوا يلقبونه «أنتوشا تشيخونته» لأنه كان هادىء الطبع، سكوتاً، شاحب اللون، قمري الوجه، منطوياً على نفسه، قليل الاختلاط بالناس.. وكان أنتوشا التلميذ، يحس في قرارة نفسه أنه شيء تافه في هذا الوجود، فكتب لأخيه ميخائيل مرة رسالة ختمها بقوله: «وأسلم لأخيك الضئيل!» فرد عليه أخوه معنفاً إياه بقوله: «لا يعجبني قولك: "أخوك الضئيل".

أتدري أمام من يجب أن تقر بضآلتك؟ يجب أن تقر بها أمام الله.. أمام العقل، والجمال، والطبيعة، وليس أمام الناس.. فعليك ألا تقر أمامهم إلا بكرامتك.. فأنت شاب شريف، والشريف يحترم نفسه. وعليك ألا تمزج بين الطاعة والاعتراف بالضآلة».

ويبدو أن هذه الكلمات قد تركت أثرها في نفس أنتوشا، ونبهته إلى ضرورة الخروج من العزلة، والشعور بالكرامة الذاتية فكتب بعد مدة رسالة لأخيه قال فيها: «أتدري يا أخي أن إدارة المدرسة تتقاضى عن كل طالب من الطلاب الداخليين مبلغ ثلثمائة وخمسين روبلاً سنوياًّ، لكنها تقدم لهؤلاء المساكين غذاء لا تستسيغه معد الكلاب».

وأخذ أنتوشا يصدر في المدرسة مجلة للتلاميذ، سماها «الأرنب»، وكان هو محررها الأول، يغذيها بنكته ومداعباته؛ وساهم في إنشاء مسرح في المدرسة أيضاً، وكان يضع له المسرحيات المدرسية ويمثل فيها.

ولما أتمّ المدرسة الثانوية بتاغنروغ، وقد بلغ من العمر تسع عشرة سنة، أحس بميل يدفعه إلى دراسة الطب، لأن الطب في نظره هو أسمى الأعمال الإنسانية، فالتحق سنة ١٨٧٩ بكلية الطب التابعة لجامعة موسكو.

وبعد مضي أربع سنوات غدا أنتوشا يلقب بالدكتور أنطون تشيخوف وهذه الناحية الطبية في حياته يجهلها معظم قرائه؛ فالذي يعرفونه عنه أنه كاتب قصص ومسرحيات ليس إلا.

حقًّا إن الدكتور تشيخوف لم يمارس الطب كمهنة دائمة في حياته، ويعزو أخوه السبب في ذلك إلى حادثتين وقعتا له في بدء ممارسته فن التطبيب: أولهما أنه وصف يوماً لأحد المرضى علاجاً أخطأ في تحضير عقاقيره. ولم يفطن للخطأ إلا في الليل، فهب من فراشه مسرعاً إلى بيت المريض الذي كان على وشك تناول الجرعة الأولى قبل النوم. وربما كانت النومة الأخيرة، وثانيهما أنه كان يعالج أسرة مريضة بداء السل، ويعودها بين حين وآخر، وحدث أن اشتد المرض على أحد أفرادها وأسلم الروح ويده بين راحتي الدكتور تشيخوف.

ومع ذلك اشتغل الدكتور أنطون تشيخوف في دائرة الصحة في موسكو، وكان طبيباً لقرية لوباسنا الواقعة بالقرب من العاصمة الروسية، واشترك سنة ١٨٩٢ في مكافحة عدوى الكوليرا، وكان على الجملة محبًّا للطب، مقرًّا بأن العلوم الطبية واختباراتها كان لها الأثر العميق في نفسه ككاتب قصص ومسرحي.

والطريف في حياة تشيخوف أن نزوعه إلى الأدب وميله إلى الطب لم يتعارضا قط، بل كانا يكملان بعضهما بعضاً، وعلى سبيل المثال نقول: إن أولى قصصه كتبها وهو يتلقى العلوم الطبية في الجامعة وعنوانها: «رسالة إلى جار عالم» ويجدها القاريء مترجمة في هذا الكتاب وهي قصة تهكمية نقدية، يسخر فيها الكاتب من «غنيٍّ أميّ» يطيب له أن يتحرش بالعلماء و«يناظرهم». وقد نشرت هذه القصة في مجلة «الذبابة الفارسية» سنة ١٨٨٠، ثم صار في تلك الأثناء يكتب في عدة مجلات نذكر منها

«موسكو» و«المنبه» و«الشظايا» و«النور والظلام» و«الصرصور» و«صحيفة بطرسبورغ». وكانت كتاباته في هذه المجلات أقاصيص هي أصغر من منقار الغراب! وقد بلغت إحداها أحد عشر سطراً. وبالرغم من ذلك كان يقول له السيد ليتينسكي صاحب مجلة «المنبه»: «أقاصيصك طويلة يا بني.. اختصر ».

وكان تشيخوف ينحو في قصصه هذه نحو الهزل والنكتة، وتحمل كتاباته أسماء مستعارة مختلفة منها «أنتوشا تشيخونته». وإذ كان يشعر دائماً بأنه بحاجة ماسة إلى شخصيات ومواضيع هزلية، أعلن في البيت، وذلك بعد أن لحقت به أسرته من تاغنروغ، أنه مستعد لشراء أية حكاية مضحكة بمبلغ عشرة كوبيكات، أما إذا كان الموضوع يصلح لقصة كاملة فيشتريه بعشرين كوبيكاً. ويظهر أن أسعاره هذه أغرت أحد إخوته[١] فكان يمده دائماً بالطرائف والملح، ومن ثم أصبح «متعهده» الخاص.

ووضع تشيخوف في تلك السن –أي وهو في الرابعة والعشرين من عمره– ثلاث روايات هي «زهور متأخرة» و«الجديلة الذهبية» و«فوز لا لزوم له» لكنها لم ترق له فيما بعد، ولم ينشرها في مجموعاته، واندثرت تماماً.

وفي سنة ١٨٨٥ وضع رسالة في التوجيه الأخلاقي لها قيمتها لصدورها عن شاب في الخامسة والعشرين، وكانت هذه الرسالة دستور تشيخوف طيلة حياته، وإلى القارىء ترجمتها الحرفية:

---

[١] كان للكاتب أربعة إخوة وأخت.

«إن المهذبين من الناس ليتحلون بالصفات التالية:

أولاً– إنهم يحترمون الشخصية الإنسانية، ولذا تراهم دائمًا متواضعين، مرنين، متساهلين، فإذا ما خالطوا أحداً من الناس فلا يقولون له "يتعذر العيش معكم".. إنهم يغتفرون للصخب والبرد، والحرارة، والتطرف ولوجود الغرباء في بيوتهم.

ثانياً– إنهم لا يتألمون للفقراء والحيوانات الضعيفة فحسب، بل إن نفوسهم لتتألم أيضاً لأشياء لا تراها العين.. وهم لا ينامون الليل لأنهم في تفكير دائم فيمن يعجز عن دفع الأقساط المدرسية عن إخوته، أو لا قدرة له على كسو أمه.

ثالثاً– إنهم لا يعبثون بملك غيرهم، وهم دائماً يسددون ما عليهم من ديون.

رابعاً– إنهم أتقياء القلوب، ويخشون الكذب كما يخشى المرء النار. فالكذب في نظرهم مهين للسامع ومحط من قيمة المتكلم.. إنهم لا يتذبذبون في حياتهم، فسلوكهم في الشارع لا يتخلف قط عن سلوكهم في البيت. وهم لا يحقرون إخوتهم الصغار، كما أنهم غير ثرثارين، فلا يتفوهون بما لا يسألون عنه وإذا ما تكلم غيرهم التزموا الصمت.

خامساً– إنهم لا يتمسكنون لاستثارة الشفقة عليهم، وهم لا يضربون على أوتار قلوب غيرهم ليفوزوا بتأوهات من أجلهم. وهم لا يقولون: "لا يفهمونني" لأن هذه العبارة لا تدل إلا على ضآلة ووقاحة وتزييف.

سادساً– إنهم لا يحملون الهموم في نفوسهم، ولا تبهرهم الأحجار الكريمة الكاذبة، كالسعي للتعرف إلى الأشخاص البارزين، أو العمل على مصافحة أيدي السكيرين!, وهم يهزأون بمن يتباهى بقوله: "إنني ممثل الصحافة"، ويكدون من أجل قوتهم فقط، فلا يقتنون ياقة بمائة روبل، ولا يهتزون إعجاباً إذا ما سمح لهم بارتياد أماكن محظورة على غيرهم، فالنباهة الحقيقية في نظرهم هي العمل في الظلمة، بعيداً عن الضجة والإعلان.. أو لم يقل كريلوف: "إن البرميل الفارغ يحدث ضجيجاً أكثر من البرميل الملآن؟".

سابعاً– إنهم يقدرون ذكاءهم، فيضحون من أجله بالراحة والخمر والنساء. وهم جد فخورين بعقولهم، ويدركون أنهم مدعوون للتأثير على غيرهم بتعاليمهم. يضاف إلى ذلك أنهم صعاب المراس.

ثامناً– إنهم لا يتصنعون تهذيب نفوسهم، لأن نفوسهم مهذبة بطبيعتها، وهم لا يهجعون بلباسهم، ولا يهملون شقوقاً في الحائط مليئة بالحشرات، ولا يستنشقون الهواء المسمم، ولا يسيرون على أرض نثر عليها البصاق، ولا يتغذون في أوعية قذرة، وهم يسعون بقدر المستطاع إلى تقييد غريزتهم الجنسية والتسامي بها، فهم لا يريدون من النساء فراشاً؛ إنهم أشبه بالفنانين يريدون من النساء نضارة وجمالاً وإنسانية وكفاءة ليصبحن أمهات.. وهم لا يقبلون على احتساء الفودكا، ولا يتشممون الخزائن مقل الخنازير، ومبدؤهم: "العقل السليم في الجسم السليم". هؤلاء هم المهذبون!

فلكي تكون مهذباً ولا تهوي إلى أقل من المستوى الذي أنت فيه لا يكفيك أن تطالع كتاب "بكفيك" أو أن تردّد حواراً من "فلوست"، بل عليك أن تعمل على صقل نفسك باستمرار، وأن تطالع دائماً، وأن تدرس، وتشد عزيمتك. فكل ساعة تمر من حياتك لا تقدر بثمن».

وفي هذه الآونة، أكب تشيخوف على وضع رواياته الصغيرة «بلا أبوة» و«ليس عبثاً صاحت الدجاجة» و«الرواية الكبيرة». ثم أنجز مأساته المسرحية: «على الطريق العام» وقد حظرت الرقابة الروسية وقتئذ طبعها لتحدثها عن طائفة من الحجاج والقساوسة وأبناء السبيل.

وفي سنة ١٨٨٦ نشر أنتوشا تشيخونته أول مجموعة من قصصه تحت عنوان: «قصص براقة» تتناول النكتة والمداعبة والنقد التهكمي اللاذع، فجلبت له الشهرة فجأة. وفي سنة ١٨٨٧ أعقب تلك المجموعة بمجموعة أخرى نشرها بعنوان: «الشفَق» وموقعة باسمه الصريح الجدي «أنطون تشيخوف». فتلألأ نجمه على إثرها في عالم الأدب الروسي، ونال الجائزة الأدبية للأكاديمية الروسية المعروفة بجائزة بوشكين.

هذه هي المرحلة الأولى من حياة الكاتب الروسي الكبير، وقد عرف فيها أنه كاتب «يَعِدُ كثيراً» ويبشر بخير أدّ وافر، فهو يضع فيضاً من القصص الصغيرة لتنشر في جميع المجلات. ولما سئل فيما بعد: «كم وضعت من القصص في تلك الفترة؟» أجاب: «أظن أنها بلغت الألف»!. ثم شرع ينتقل من وضع الأقاصيص التي تنطوي على النكتة والملاحة، وحدة الذهن، إلى القصص الكبيرة ومحاولات في الرواية. وكان القوم وقتئذ

ينظرون إليه بوصفه شابًّا فطناً، إلا أن أحداً منهم لم يدر بخلده أن هذا الشاب الفطن سيدخل في عداد الكتاب الكلاسيكيين الروس.

بعث تشيخوف يوماً برسالة للكاتب الروسي الشيخ «غويغوريفتش» قال له فيها: «كنت أكتب القصص كما يكتب محبرو الصحف أنباء الحرائق، كنت أكتبها وأنا في غمرة من الذهول، وكأني في حالة لا شعورية غير مهتم بالقارئ أو بنفسي، وغير ساع لأن أضع في القصة أشكالا وأشخاصاً كانت عزيزة علي؛ والله وحده يعلم ما الذي كان يجدر بي لأن أحتفظ بها وأدخرها».

وفي سنة ١٨٨٧ وضع تشيخوف مسرحيتين هزليتين من ذوات الفصل الواحد، وهما «الدب» و«طلب زواج» –ويجد القارئ المسرحية الأولى مترجمة في هذا الكتاب– وقد لاقتا لدى الجمهور الروسي نجاحاً كبيراً؛ ثم أعقبهما سنة ١٨٨٨ بأولى مسرحياته الكبيرة «إيفانوف» فحالفها التوفيق وجلبت له الثناء والمال معاً.

وفي سنة ١٨٨٩، وضع روايته الكبيرة «القفر» ومسرحية هزلية مؤلفة من فصل واحد «مفجوع رغم أنفه» –يجدها القارئ مترجمة في هذا الكتاب أيضاً– ثم أعقبهما بمسرحيته الكبيرة «جني الغابة»، طلبها منه مسرح «كيرش» في بطرسبورغ، ورجاه أن يسرع في وضعها، فكان تشيخوف يضع كل يوم فصلا فيحمله الرسول إلى مدينة بطرس ويعرضه على الرقيب قبل أن يجف حبره، ثم يحيله إلى الممثلين ليستعدوا عليه.

والمعروف عن تشيخوف أنه كان يمقت «جني الغابة» وقد أصرَّ على

عدم إعادة طبعها وتمثيلها، ثم عدّلها بعد سنوات وأدمجها في مسرحية «العم فانيا».

وفي هذه المرحلة الثانية من حياته الأدبية يعترف به القوم بأنه «من أنبه الكتاب»؛ فتقل كتابته، ويبدو عليه التحفظ، ويتحدث الناس عن كل شيء يكتبه، وتفتح له المجلات الكبرى صدورها، لكنه يتهم «باللامبدئية».

وحدث في تلك الأيام أن أثار جماعة من الأدباء الكلام عن تشيخوف في حضرة الشيخ غريغوريفتش، فقارنوه بكاتب أقل نبوغاً منه، لكنه يفوقه في «المبدأ» فتنمر الكاتب الشيخ وقال: «إن هذا الكاتب المبدئي، لا يستحق أن يقبّل أثر البرغوث الذي يلسع تشيخوف!».

ويندمج الكاتب في هذه المرحلة بجميع الأوساط الأدبية والفنية في العاصمتين الروسيتين، ويظهر في المجتمعات متواضعاً، محبًّا للإصغاء والتأمل، مقلاً من الكلام، وتأخذ شهرته في الانتشار والذيوع، ويحس الكاتب في هذه المرحلة أيضاً بميل إلى الرحلات فيتجه صوب القرم والقوقاس والفولغا، ثم يعقد النية على السفر إلى آسيا الوسطى وإيران، غير أنه يتلقى نبأ وفاة أخيه ميخائيل وهو في باكو، فيقفل راجعاً إلى موسكو.

ثم لم يلبث أن عند إلى إعداد مشروع للسفر إلى جزيرة «سخالين» جزيرة المنفيين والمبعدين. ومما قاله في تلك الجزيرة: «ربما لا يهم أمر سخالين تلك الفئة من الناس التي ليس لها فيها الآلاف من الإخوان والبنين، ولا تنفق عليهم الروبلات بالملايين.. فسخالين هذه موطن آلام لا

تطاق.. ولا يقوى على احتمالها الأحرار أو المستبعدون. حقًّا إنه ليؤسفني أنني غير عاطفي وإلا لنصحت الناس بأن يحجوا إلى سخالين جيلاً بعد جيل كما يحج المسلمون إلى مكة، وأما البحارة والسجانون فعليهم أن يتطلعوا إلى سخالين كما يتطلع المحاربون إلى سراستوبول».

وقام برحلته هذه سنة ١٨٩٠، وظل في الجزيرة مدة ثلاثة أشهر لم يترك فيها مكاناً إلا زاره، وبعد عودته وضع سفراً قيماً يقع في أربعمائة صفحة، ووصف فيه الجزيرة وسكانها وصناعتها وزراعتها ودوائرها ومنافيها، حتى إن وزارة المعارف الروسية حينذاك أذنت بتدريس «فصوله الجغرافية» في مدارسها.

وما إن استقر تشيخوف في موسكو ثانية، حتى بدأ يملّ ويتضجر، ويقول لأصدقائه: «إيه أصدقائي.. ما هذا الملل المستولي عليّ.. إن كنت طبيباً فإنني بحاجة إلى مرضى ومستشفى، وإن كنت أديباً فعليَّ أن أعيش في وسط الناس، لا في زقاق مالايا ديمروفكا.. إنني بحاجة ماسة إلى "قطعة" من الحياة السياسية والاجتماعية.. وأما هذه الحياة بين جدران أربعة، حيث لا صحة ولا شهوة، ولا أناس ولا وطن! فهي ليست حياة وإنما هي الموت بعينه!».

وسرعان ما أقبلت عليه «القطعة» المطلوبة من الحياة الاجتماعية والسياسية، ملبية نداءه، إذ حدث أن المجاعة ضربت أطنابها في روسيا سنة ١٨٩١، فهب الكاتب يجمع للجياع اللباس والقوت. وفي سنة ١٨٩٢ رحل إلى مواطن المجاعة في نيجيغورودسكي وأخذ يشرف بنفسه على عمليه إغاثة الفلاحين المنكوبين.

وفي ميليخوفة هذه وضع تشيخوف مسرحيته «النورس» –وهو طائر مائي في حجم الحمام أو أكبر يعلو في الجو ثم يزج نفسه في الماء، ولا يأكل غير السمك– ومثلت على مسرح ألسكندر يفسكي في بطرسبورغ سنة ١٨٩٦، لكنها باءت بالفشل الذريع لأن الممثلين في ذلك المسرح الحكومي اعتادوا التمثيل الفني بلا حياة، فلم يفقهوا تشيخوف في روايته.. فكانت العبارات الشعرية في روايته تثير ضحك الجمهور.. وكانت أقوالها الانتقادية تؤخذ على علاتها فيعلق عليها النظارة بالتنكيت والسخرية.. ولما انتهى من التمثيل أقبل المداهنون يهنئون الكاتب وهو واقف خلف الستائر فلم يقو على احتمال هذه الهزيمة، وفر من المسرح، وراح يسير على ضفة نهر النيل نيفا على غير هدى، وكان الطقس رطباً بارداً، فأثر ذلك في رئتيه المريضتين، وأسرع في تقصير أجله.

إن حكم نظارة المسرح أسرع من القراء وأشد قسوة، فالرواية يطالعها الناس وتنقضي مدة من الزمن حتى يفطن أحدهم لانتقادها، وأما المسرح فترتفع فيه أصوات آلاف النظارة فوراً وتصدر في المسرحية حكماً سريعاً لا رحمة فيه، ثم تهب الصحف بعد ذلك وتدين تلك المسرحية مستندة إلى الحكم الذي أصدره جمهور النظارة في المسرح.

وقد تلقى تشيخوف على أثر فشل «النورس» رسالة من لينسكي، وهو أحد كبار ممثلي المسرح الإمبراطوري الصغير، قال له فيها: «أنت تعرف مقدار حبي لك، وتقديري لذكائك، ولذا أرى لزاماً علي أن أكون صريحاً معك.. فهاك نصيحتي الخالصة: لا تكتب للمسرح، فالمسرحيات ليست من اختصاصك».

إلا أن فشل «النورس» و«نصيحة»، لينسكي وغيره لم تحدّ من نشاط تشيخوف المسرحي، فتابع وضع المسرحيات، وأخرج إلى الوجود «العم فانيا» سنة ١٨٩٦، و«الأخوات الثلاث» سنة ١٩٠٠، و«حديقة الكرز» سنة ١٩٠٣، وقد تبنى مسرح موسكو الفني جميع هذه المسرحيات بما فيها «النورس» ومثلها أفضل تمثيل يطابق روح تشيخوف وطراز تفكيره المستمد من وخزات الحياة ودقائقها.

ولما احتفل بانقضاء عشر سنوات على تأسيس مسرح موسكو الفني وقف الممثل ستانيسلافسكي وقال عن «النورس»: «لقد جاءنا هذا النورس طائراً من بيت تشيخوف، وجلب لنا معه السعادة وأنار لنا طريقاً جديدة في حياتنا الفنية».

وقال الكاتب المسرحي الروسي الأشهر نميروف دانشنكو في خطابه الموجه إلى تشيخوف إبان عرض «حديقة الكرز» سنة ١٩٠٤: «إن مسرح موسكو الفني مدين لذكائك ولقلبك الرقيق، ولنفسك الطاهرة فيحق لك أم تقول: إن هذا المسرح مسرحي».

وقال تشيخوف في إحدى رسائله عن المسرح المذكور: «إن المسرح الفني هو أروع صحيفة في ذلك الكتاب الذي سيوضع يوماً ما عن المسرح الروسي المعاصر».

وهكذا توطدت الصلات بين المسرح الفني وتشيخوف حتى غدا الاثنان متلازمين ملازمة الروح للجسد. ولما عرض المسرح المذكور «العم فانيا» للمرة الأولى في موسكو كان الكاتب في القرم يعالج مرض ذات الرئة

فقرر الممثلون السفر إليه ليقوموا بتمثيل روايته أمامه. وتوجهوا فعلا إلى يالتا، حيث كان يصطاف مكسيم غوركي، وعدد كبير من الكتاب وأسرهم، ومثلوا «العم فانيا» بحضور أنطون تشيخوف وأقاموا في حديقة بلدية يالتا حفلة تعارف كبرى بين الكتاب والفنانين.

فمسرحيات تشيخوف لم تنل في باديء الأمر النجاح من الجمهور لضعف فيها، أو لعدم استعداد الجمهور لفهمها، بل لأن الممثلين والمخرجين كانوا يتقيدون بقواعد بعيدة عن واقع الحياة، فتعذر عليهم إخراج مسرحيات تشيخوف كما يريدها هو، ولم يتخط هذه العقبة إلا مسرح موسكو الفني الذي أتينا على ذكره.

قال أحدهم: "لكي تكتب المسرحية يجب أن تكون ذكيًّا، ولكي تخرجها يجب أن تكون نابغة"!

وشخصيات تشيخوف في مسرحياته خلو من كل صباغ، هم أناس بسطاء، يتحدثون عن أبسط الأمور بلغة بسيطة.. فليس فيهم ندَّاب بكاء، ولا من يتعلق بأهداب المثل العليا الخيالية، وليس بينهم أبطال يتباهون بجلائل الأعمال، بل على النقيض من هذا كله فالمؤلف يعري شخصياته، ويكشف عن نواحيها السيئة، ويشير إلى نزعاتها الأنانية، فيحس قاريء مسرحياته والناظر إليها أن قلبه يميل إلى الحنان والتعطف على أناس غير واضحين، وأن أحلاماً غير واضحة تدغدغه وتنبهه إلى حياة أفضل، وإن كانت غير واضحة!

وترافق هذه البساطة في التعبير، موسيقى خلابة، وكوخ مهجور وليلة

قمراء، وهدوء «سارة» المكبوت وأحزان «إيفانوف»، وكمان العزاف الرقيق. وكل ذلك طبيعي لا تصنع فيه ولا تكلف، لأن تشيخوف لم يتبع أي تمييز في الألوان والألحان التي خلعها على شخصياته، وقد حصر همه في إخراج المسرحية بطبيعتها، غير باحث عن أشكال جديدة، وغير ساع لأن يكون مجدداً في المسرح الروسي؛ وكل ما كان يسعى إليه هو إيجاد أدوار جديدة للممثلين مصوراً شخصياته كما يراها في الحياة متصل بما يحيط بها من حقائق ووقائع.. فتتضمن مسرحياته الحديث عن الفجر الوردي، والأمسيات الساحرة، والمصابيح، والمواقد، وغلايات الشاي، والبيانوات، والآلات الموسيقية، والتبغ، والأخوات، والخالات، والعمات، والجيران والأغاني، وغير ذلك من مئات وآلاف الأشياء الصغيرة التي تبعث الدفء في الحياة.

فتشيخوف نظر إلى الناس بعينيه لا بأعين تولستوي، ودستويفسكي، وتورغنينف. فلا أبطال لديه وإنما أمزجة مختلفة من الناس.

قيل له يوماً: أقرأت «الجريمة والعقاب» لدستويفسكي؟ فأجاب: أرجأت قراءتها حتى أبلغ الأربعين! ولما بلغها سئل: أقرأتها؟ فأجاب: أجل قرأتها ولكنها لم تترك في نفسي أثراً كبيراً!

فتشيخوف صاحب اتجاه خاص في تأليفه، فهو كما ألمحنا يصور أمزجة الناس، وحالاتهم النفسية على مختلف أشكالها، كما يصف طباعهم وسلوكهم وعاداتهم، ويتناول وخزات الحياة الدقيقة، التي لا ينتبه لها المرء لكنها هي التي تولد بالتدريج حالات شتى من التعقدات النفسية

والفكرية. فالوخزة –أي أتفه متاعب الحياة– هي محور شخصيات تشيخوف، وهي المقياس الذي يقيس به قيم الحياة الإنسانية.

وفي هذه المرحلة الثالثة من حياة الكاتب يُعْتَرف بأنه من كبار الكتاب المسرحيين، ويبدو في هذا الدور بأنه يعمل على تهذيب فنه العظيم، ويفسح المجال لشخصياته لتفكر وتمحص، ويتناول بصورة خاصة أشكالا من حياة المتعلمين الروس، التائهين في عالم المتناقضات، الغارقين في الأحلام، وانعدام الإرادة. وفي غمرة هذه التأملات يعثر المرء على أفكار للمؤلف حكيمة، فاضلة، أعرب عنها برشاقة وفن عظيمين، كما أن أغنية «عدم المبدئية» اندثرت تماماً، وغدا اسمه يأتي بعد اسم تولستوي مباشرة.

إن كل من يطالع قصص تشيخوف ومسرحياته لا يسعه إلا أن يقر بعبقرية هذا الكاتب الفنان العالمي، وإذا استقصينا السر في هذه العبقرية لا نجده في كفاياته الشخصية فحسب. بل في فهمه العميق لروح القصة والمسرح أيضاً.

حدثنا الكاتب الروسي تيليشوف –وهو أحد معاصري تشيخوف وأصدقائه– قال: "تعرفت إلى تشيخوف في سهرة شتوية؛ ولما قربت تلك السهرة من نهايتها قال لي: لقد لاح الصباح، والمدعوون يتفرقون إلى منازلهم، وحان لنا أن نخرج أيضاً، فهل رافقتنا لنشرب الشاي مع الزميل غيليلاي وأخي ميخائيل بافلوفتش؟ فقبلت الدعوة وخرجنا أربعتنا في طلب الشاي، وبعد بحث متواصل في الحارات والأزقة وجدنا مقهى أضيء مصباحه، فدخلناه وكان قذراً حقيراً. فقال تشيخوف معلقاً: هذا ما

نستحقه الآن، وإذا وضعنا كتباً جيدة استحققنا أن نتناول الشاي في مقاه فاخرة!

ولما كنا في ملابس السهرة الرسمية اعتبرنا أصحاب المقهى من خدم الموائد الأرستقراطية الذين أنهوا عملهم في حفلة عرس كبرى! فاغتبط تشيخوف لذلك وقال: هذا شيء نفيس. إنكم لتشكون من قلة المواضيع للكتابة. أو ليس هذا بموضوع؟ هنا مادة لقصة طويلة!

وكان حائط المقهى قذراً، وقد زهرت عليه بقع سوداء، تركتها رؤوس الحوذيين المخضبة بالزيوت، فتطلع الكاتب إلى هذه البقع وقال: كيف لا توجد مواضيع للكتابة، المواضيع موجودة في كل مكان.. انظروا إلى هذا الحائط: ها هو ذا يبدو لكم لأول وهلة أن لا شيء فيه يسترعي الاهتمام، ولكنكم إذا أنعمتم النظر فيه رأيتم شيئاً «خاصًّا به»، لم يعثر عليه أحد بعد! فتحدثوا عن هذا الشيء. وأؤكد لكم أنكم تضعون حينئذ قصة جيدة. وأضرب لكم مثلا بالقمر: لم يبق كاتب أو شاعر إلا تحدث عن القمر، ومع ذلك بوسع المرء أن يجد في القمر شيئا «خاصًّا به» ويكتب عنه.

والتفت الكاتب فجأة إلى النافذة المطلة على الشارع، وكان ضياء الفجر آخذاً في الانتشار وقال: انظروا ألا ترون قسًّا يحمل كتابه بيمينه وهو في طريقه إلى برج الكنيسة؟ ألا تشعرون أن الموضوع الطريف يثير نفسه بنفسه؟ هناك شيء مفجع، قس في السواد وفجر ممتقع!".

كان أنطون تشيخوف يقول للكتاب الناشئين: "لا يجوز للكاتب أن يجلس بين أربعة جدران، وأن يستولد المواضيع من ذاته، بل عليه أن يرى

الحياة والناس ويلمسهما، وعليه أن يستمع إلى أحاديث القوم كما هي لا كما يتخيلها، وأن يسعى دائماً إلى الأسفار والاحتكاك بمختلف العناصر والشعوب". ونصح الكاتب مرة أحدهم بقوله: "سافر إلى اليابان!" ونصح غيره بقوله: "سافر إلى أستراليا!".

وصادف الكاتب مرة صديقه تيليشوف راكباً قطار الضواحي فبادره قائلا: "لا تسافر إلى مصيفك الريفي، لأنك لن تجد هناك شيئاً يذكر، سافر إلى مكان قصي، يبعد عن هذه المنطقة ألفاً أو ألفين أو ثلاثة آلاف فرسخ.. ارحل إلى آسيا، وإلى البايكال في سيبيريا. فالمياه هناك عذبة صادفية، وإذا لم تجد متسعاً من الوقت فسافر إلى جبال الأورال حيث الطبيعة مائعة خلابة. أجل تخط حدود بلادك إلى أوروبا حتى إذا أرعدت شهرت بأنك تقف على تربة آسيوية!.. وبعد ذلك ارجع إلى منزلك أو إلى مصيفك وأنت تحمل الشيء الكثير من المواد والمعلومات، بل الكثير من القصص! ففي الأسفار تشاهد كيف تعيش الشعوب، وتكون مرغماً على أن تقضي الليل في الحانات أو الأكواخ، فتتقلب على الفراش الخشن، والبراغيث تلسعك وتقض مضجعك.. وإذا ما أتممت ذلك كله فعد إلي واشكرني.. ونصيحتي إليك ألا تجلس في القطار الذي تسافر فيه إلا في عربات الدرجة الثالثة.. امتزج بالشعب الساذج، وإن لم تفعل ذلك فلن يبلغ مسمعيك شيء له أهميته.. فإذا أردت أن تكون كاتباً فما عليك إلا أن تبتاع تذكرة إلى منطقة نيجني، ومن ثم أبحر في نهر الفولغا، ثم في نهر كاما".

وعمل تيليشوف بنصيحة تشيخوف فأبحر سنة ١٨٩٤ في نهر الكاما الممتد وراء جبال الأورال، وتعرف هناك إلى حياة المستعمرات الروسية التي يقطنها الفلاحون الروس، ولمس بؤسهم الذي يشبه الخرافات والأساطير، ولما عاد إلى موسكو كان يحمل في جعبته مجموعة رائعة من قصص سيبيريا، فتزاحمت عليها كبريات المجلات الروسية في ذلك الحين.

ويروي لنا تيليشوف قصة طريفة من حياة الكاتب فيقول: "كنت يوماً أركب القطار في الدرجة الثالثة فاجتمعت فيه بفلاح مسافر إلى قرية لوباسنا، مصيف تشيخوف، وبحكم جواري لذلك الفلاح تجاذبنا أطراف الأحاديث، فلما عرفت أنه من قرية لوباسنا قلت له: لي صديق في قريتكم أعرفه..

قال: من هو؟

قلت: الدكتور تشيخوف.

قال: ها.. أنطون بافلوفيتش؟

قال ذلك مبتسماً مسروراً، ولكن سرعان ما تجهم وجهه وأردف قائلاً: حقًّا إنه لشخص غريب الأطوار، مشوش الأفكار!

قلت: من؟

قال: الدكتور أنطون بافلوفيتش؟؟ نقلت له زوجتي العجوز وعالجها وشفاها.. ثم مرضت بدوري وعالجني وشفاني.. ولما قدمت له أجراً رفض قبوله رفضاً باتًّا. فقلت له: أي عزيزي أنطون بافلوفيتش كيف ترفض

الأجر، ومن أين ستعيش إن لم تتقاض مني ومن غيري أجراً.. أنت لست بالرجل الغني! هلا فكرت في مستقبلك قليلاً.. تصور أنك في ساعة من ساعات القدر العاتية ستضطر إلى ترك عملك، فما أنت فاعل؟ أتشتغل بالتجارة وأنت تجهلها! وإلى أين تذهب ويداك خاليتان من المال؟ فضحك أنطون بافلوفيتش وقال: إذا أخرجت من عملي أتزوج من امرأة تاجرة! وكان جوابه أن ضحك ثانية كأن الحديث لا يعنيه ألبتة.

كان جليسي يحدثني بذلك وهو يلوي رأسه ويتنهد، ثم أردف قائلا: أجل! إنه لرجل طيب أنطون بافلوفيتش.. غير أنه سيعاني مصاعب جمة في كبره.. إنه لا يدرك قسوة الحياة عندما تكون بلا حساب!".

أما هذه الحياة «بلا حساب» في حياة تشيخوف فتظهر بكل وضوح وجلاء في الحادث التالي:

اتفق الكاتب سنة ١٨٩٧ مع الناشر الألماني ماركس، صاحب دار «نيفا» للنشر، على أن يضع تحت تصرفه كل مؤلفاته التي كتبها والتي سيكتبها في حياته مقابل خمسة وسبعين ألف روبل، ونصت الاتفاقية على أنه لا يحق للكاتب أن يسمح لأحد بنقل شيء من مؤلفاته حتى ولو كان القصد من ذلك عمل الخير، أو مساعدة أية هيئة من هيئات الإحسان!

وبعد أن وقع الطرفان هذه الاتفاقية شرعت دار النشر «نيفا» في طبع مؤلفات تشيخوف في اثني عشر مجلداً، وعرضت على الجمهور. فأدرت عليها بعد مرور سنة من الزمن أرباحاً طائلة عوضت عليها أضعاف ما دفعته للكاتب.

وما إن انتشر خبر هذه الاتفاقية حتى أحدث ضجة كبرى في الأوساط الأدبية الروسية. وأسرع مكسيم غوركي في كتابة رسالة لأنطون تشيخوف ينصحه فيها بأن يفسخ اتفاقيته مع ماركس. وقال له فيها:

«ابعثوا بهذا اللص إلى الشيطان.. إنني أتقدم إليكم بالنيابة عن نفسي، وبالأصالة عن دار "دار المعارف" أن افسخوا اتفاقيتكم مع ماركس؛ أعيدوا إليه الخمسة وسبعين ألف روبل مع الفائدة ونحن نتعهد لكم أن نساعدكم في ذلك. إننا نضع تحت تصرفكم كل ما تحتاجون إليه من مال.. ثم خولونا حق نشر مؤلفاتكم. أي ادخلوا شريكا في دار "المعارف" وتولوا بنفسكم نشر كتبكم.. إننا نعدكم بتسليمكم كل الربح الذي نجنيه من نتاجكم الفكري. وتظلون المالك الشرعي لذلك النتاج طيلة حياتكم. واتفاقكم معنا يمكنكم من طبع كميات كبيرة من كتبكم. وبيعها بأسعار زهيدة تنافس أسعار ماركس.. إن الناس اليوم يقرؤونكم في القرى، كما يقرؤكم فقراء المدن، وهؤلاء يتعذر عليهم دفع روبل وخمسة وسبعين كوبيكاً ثمناً للكتاب الواحد.. أي عزيزي ابعثوا بهذا الألماني إلى الشياطين.. فوالله إنه لينهبنكم بكل قحة.. افسخوا اتفاقيتكم معه، ودار "المعارف" تضمن لكم دخلا سنويًّا معلوماً قدره خمسة وعشرون ألف روبل. فكروا في ذلك!».

ولما كانت البلاد الروسية تتأهب في ذلك الحين للاحتفال بمرور خمس وعشرين سنة على حياة تشيخوف الأدبية. اجتمع فريق من الأدباء والشعراء والعلماء، والفنانين، واتخذوا قراراً بالاحتجاج على اتفاقية ماركس وبعثوا له بالرسالة التالية:

«في هذه الاتفاقية التي تستعد فيها روسيا بأسرها للاحتفال بمرور ربع قرن على حياة أنطون تشيخوف الأدبية، تبرز أمامنا قضية خطيرة تهم المجتمع الروسي قاطبة. ومفاد هذه القضية أن هناك عدم تناسب مريع بين ما قدمه ويقدمه أنطون بافلوفيتش من خدمات أدبية جليلة من جهة، وعدم ضمان حالته المادية من جهة أخرى.

عمل أنطون بافلوفيتش ربع قرن في إيقاظ ضمائر الناس وإنارة أفكارهم بما قدمه من تآليف نفيسة خطها بمداد قلبه المحب الحي. وله الآن ملء الحق في أن يجني ثمار مجهوده الفكري وإلا العار العار!

إن المؤلفين والكتاب في البلاد الغربية يصيبون القدر الكبير من الثروة والاستقلال مما يقدمونه لأقوامهم من تآليف. وأما تشيخوف روسيا فهو لا تنقصه الثروة فحسب –إذ لا يعقل أن يحلم الكاتب الروسي بالإثراء– بل إنه لا يملك أيضاً القدر المتوسط من المال الذي يمكنه من الكون إلى الراحة في كبره دون أن يفكر في قوت غده.

أجل، هذا هو المصير الذي ينتظر رجلا تتجه إليه اليوم أنظار الروس، وهي تشع بوميض الفرح والابتهاج لمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على حياته الأدبية الطافحة بروائع الإنتاج، والتي وضعته في مصاف الكتاب العالميين.

فمنذ أشهر فقط عمد بلد صغير مثل بولونيا إلى إظهار عواطفه الإنسانية السامية نحو شاعره القومي سينكيفتش. فأكرمه بسخاء في يوبيله الأدبي الفضي. وأما تشيخوف روسيا العظمى فيقابله الدهر الخؤون بحرمانه أبسط حتى من حقوقه المعاشية.

لقد اطلعنا على الاتفاقية المعقودة فيما بينكم وبين أنطون بافلوفييتش تشيخوف والتي يحق لكم بمقتضاها أن تضعوا يدكم على جميع مؤلفاته مقابل خمسة وسبعين ألف روبل. والتي تخولكم الحق أيضاً في أن تدعوا ملكية كل ما ينتجه في المستقبل مقابل أجر زهيد لا يزيد على المكآفات العادية التي يدفعها أصحاب المجلات للأدباء والكتاب. والفارق بينكم وبين تلك المجلات أن هذه تكتفي بنشر المقال مرة واحدة وأما أنتم فتنشرون تآليف تشيخوف مراراً عديدة. وإننا لعلى علم تام بأنكم قد تمكنتم، بعد مرور سنة على عقد تلك الاتفاقية، من تعويض ما دفعتموه لتشيخوف أربعة أضعاف!

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار هذه الأرباح الطائلة التي جنيتموها، والتي ستجنونها في المستقبل، من بيع تآليف تشيخوف؛ نصل حتماً إلى نتيجة محزنة أليمة لا ريب فيها، وهي أن الكاتب الكبير لم يصب إلا جزءاً ضئيلاً جدًّا مما يستحقه.

ولاتفاقيتكم هذه شرط سلبي آخر وهو إرغام أنطون تشيخوف على أن يقدم لكم كل تآليفه الجديدة مقابل ثمن بخس. فهذا الشرط الجائر لابد أن يكون حملا ثقيلا على نفس الكاتب، وسيترك أثراً سيئاً في سير إنتاجه الأدبي.

وفي الاتفاقية نص آخر يفرض على الكاتب غرامة قدرها خمسة آلاف روبل على كل ملزمة مطبوعة في دار نشر غير دار "ماركس" وهذا يعني أيضاً حرمان الكاتب من إصدار طبعات شعبية زهيدة الثمن، فتكون

جميع الكتب الحديثة – الصادرة في طبعات شعبية– في متناول الجميع حاملة أسماء كل الكتاب، غير اسم عزيز علينا، هو اسم أنطون بافلوفيتش تشيخوف.

إنا نرجوكم في هذا اليوبيل الفضي الأدبي المقام للكاتب الكبير أن تعدلوا ذلك الجور غير المختار الكامن في طيات اتفاقيتكم. وإنا لنفترض بأنكم وأنطون بافلوفيتش لم تتمكنا في أثناء عقد الصفقة فيما بينكم من لمس ما ستسفر عنه تلك الصفقة من نتائج، ولذا نتوجه إلى ضميركم وعدلكم أن تفسخوا الاتفاقية، ونعتقد جازمين أن الاعتبارات الشكلية في مثل هذه الأحوال يجب ألا تلعب دوراً هامًّا على الإطلاق.

ونلفت أنظاركم إلى أن اتفاقيات مماثلة فسخت في الماضي، ونضرب لكم مثلا بالاتفاقية المعقودة بين إميل زولا ودار "فيكسل" للنشر، فقد عقدت هذه الاتفاقية بين الفريقين في وقت لم يكن فيه زولاً كاتباً كبيراً، له قراؤه. ولما شغل زولا المكان اللائق به في الأدب الفرنسي، عمدت دار "فيكسل" إلى فسخ الاتفاقية وتحرير اتفاقية ثانية تضمن للكاتب الفرنسي الحرية والضمان».

ووقع هذه الرسالة عدد من الكتاب، والعلماء، والفنانين، بينهم مكسيم غوركي وليونيد أندرييف، وفيودور شاليابين، وإيفان بونين، ونيقولاي تيليشوف وغيرهم.

ولما بلغ تشيخوف خبر هذه الرسالة سأل القائمين بها أن يكفوا عن جمع التواقيع، وألا يبعثوا بها إلى «ماركس» قائلا: "لقد وقعت تلك

الاتفاقية مختاراً، ولا يليق بي أن أتخلى عن الالتزامات التي قطعتها على نفسي، فإذا رَخُصْتُ فأنا الملوم! لقد ارتكبت حماقة، والسيد «ماركس» غير مسئول عن حماقات غيره.. ففي مرة أخرى سأكون حذراً!".

وفي هذه الآونة، أي حوالي سنة ١٨٩٥، تعرف تشيخوف إلى إيف تولستوي، وتطور هذا التعارف إلى صداقة، ثم إلى حب واحترام، في حين أن الشخصين كانا على طرفي نقيض في طريقتهما، ونمط تفكيرهما ولا يتقابلان في نقطة واحدة؛ فالأول واقعي إلى أبعد حدود الواقعية والثاني صوفي مغال في صوفيته. وبالرغم من ذلك كان تولستوي من جهته يجل تشيخوف أيضاً كفنان عظيم، وإنسان سام، وشخصية فذة، ويغفر له عبادته للعلم والثقافة، ويسر جدًّا لتآليفه، ويعجب بها، وهكذا توطدت عرى الصداقة بين الأرستقراطي العظيم المتحدر من أسرتي فولكونسكي وتولستوي، والرجل الشعبي الصاعد في الفلاحين الأرقاء!

قال تولستوي مرة: "تشيخوف هو بوشكين روسيا في النثر!".

وقال أيضاً: "تشيخوف شخص فاتن، متواضع، لطيف المعشر، ويسرني أن أتحدث عنه".

وكان تشيخوف يقدر تولستوي العبقري حق قدره، ويدرك كنه قيمته الأدبية، ويتبين لنا ذلك من المثل التالي:

أصيب تولتسوي سنة ١٩٠٠ بمرض عرّض حياته للخطر، وكان تشيخوف طبيبه الخاص فأخذ يعالجه ويعوده يوميًّا، وإذا خرج من عنده مرة

قال لأصدقائه: «إنني أخشى موت تولستوي، ففقدانه سيحدث فراغاً عظيماً في حياتي، لأنني أولاً: لا أحب أحداً أكثر منه، وثانياً: لأن وجوده في معترك الحياة الأدبية يسهل على المرء أن يكون أديباً، وأن يتذوق الأدب حتى ولو أنه لم يفعل للأدب شيئاً! فتولستوي يعمل للجميع! وثالثاً: لأن في بقائه على قيد الحياة بناء قوة معنوية تكبح جماح الأذواق القبيحة! ورابعاً: لأن في بقائه ما يحفظ الأحاسيس الأدبية واتجاهاتها على أن تظل في مستوى عال معلوم». ومن غريب تصرفات الدهر أن الشيخ تولستوي شفي من مرضه، وبعد سنوات قلائل، كان في جملة من شيع تشيخوف إلى لحده!

ففي سنة ١٨٩٧ اكتشف الكاتب فجأة أنه مصاب بالتدرن الرئوي؛ فسافر إلى بيارتس في فرنسا للاستشفاء، ثم انتقل إلى نيس. وفي سنة ١٨٩٨ عاد إلى روسيا فباع أملاكه في قرية ميليخوفة، وتوجه توًّا إلى يالتا في القرم برفقة شقيقته ماريا بافلوفنا، فابتاع هناك أرضاً في قرية آوتكه، وشيد عليها بيتاً صغيراً حسب ذوقه، وأحاطه بحديقة غناء، زرع فيها أشجاراً توحي له جو المناطق الروسية الشمالية التي كان يتعشقها، ومع ذلك كان ينظر إلى القرم وكأنه منفى لا مكان للاستشفاء والتمتع بجمال المناطق الطبيعية الجنوبية، مخالفاً في ذوقه هذا معظم شعراء الروس وكتابهم، الذين كانوا يتمنون العيش عند سواحل القرم أو على جبال القوقاس.

ونرى الكاتب في القرم كما عهدناه في قرية ميليخوفة، منشئاً اجتماعيًّا، يعني بمعالجة المرضى والضعفاء، كما أن مرضه لم يفقده حبه

للنكتة، وخفة الروح، والتحدث عن صغائر الأمور، والمداعبات المستحبة.

وحدث في خريف سنة ١٩٠٢ أن زاره في بيته[٢] في القرم جماعة من الأدباء والكتاب بينهم غوركي، وبونين، وبعد أن تناولوا العشاء تطوع بونين بأن يقرأ على الحضور قصة مرحة لتشيخوف، وكان المؤلف قد نسيها لقدمها.. فأنصت الجميع لبونين، وقد سحرهم بحسن إلقائه، وإحكام لفظه، أما تشيخوف فقد علق الكاتب المريض بقوله:

«أنتم محظوظون يا كتاب اليوم، فالناس يخلعون عليكم آيات الثناء على ما تقدمونه لهم من قصص قصيرة.. أما أنا فقد مر بي زمن كان الناس فيه ينهالون عليَّ بالشتائم لأنني أكتب القصة! لأنهم كانوا يعتقدون أن الكاتب لا يكون موضع الاحترام والاعتراف بالجميل إلا إذا وضع رواية كبيرة!؟؟ غير أنني بينت عقم هذه الفكرة، وخرقت الحائط بجبيني من أجل القصص القصيرة».

وفي ٢٥ مارس سنة ١٩٠٢ تزوج الكاتب من إحدى ممثلات مسرح موسكو الفني، وهي أولغا ليونارود كنيبر، وكان زواجاً دام سنتين فقط.

وفي سنة ١٩٠٢ أيضاً انتخب تشيخوف، وغوركي، وكورولينكو[٣]

---

[٢] فيلا تشيخوف هذه لا تزال قائمة بالقرب من يالتا في القرم، وهي اليوم متحف لآثار الكاتب الكبير، وكل شيء في هذه الفيلا باق مكانه كما تركه، فهنالك غرفة نوم، ومكتبته، وملابسه، ومجموعة آخر رسائله.. فيخيل للزائر أن صاحبها آت بعد لحظات!

[٣] دلاديمير غالا كتينوفتش كورولينكو (١٨٥٣– ١٩٢١) كاتب روسي كبير، ومن مؤلفاته البارزة «الموسيقار الضرير».

أعضاء في الأكاديمية الروسية، لكن القيصر نيقولا الثاني أبى على غوركي عضوية الأكاديمية وحرمه منها قائلا: «إنني جد متألم من انتخاب غوركي»، فما كان من تشيخوف إلا أن رفض عضوية الأكاديمية احتجاجاً على تصرف القيصر المشين، ومناصرة لزميله الكاتب الشعبي الكبير.

وفي سنة ١٩٠٣ وضع الكاتب تمثيلية «حديقة الكرز» فقرر مسرح موسكو الفني أن يمثلها في ١٧ يناير سنة ١٩٠٤، أي في ذكرى ميلاد تشيخوف، وفعلا مثلت في حضوره، وبعد الانتهاء من التمثيل وقف صاحب التمثيلية على المسرح والجمهور الغفير يقدم له الزهور، والهدايا، والبطاقات، وكان الكاتب –وقد اشتد عليه المرض– يبدو شاحباً هزيلاً، متصوراً أن الجمهور يجري تجربة كبرى لتشييع جثمانه!

وفي شهر يونيو سنة ١٩٠٤ ألح الأطباء على تشيخوف بأن يسافر إلى بادن فيلير في ألمانيا للاستشفاء، وقبيل مغادرته القرم زاره أصدقاؤه فرأوه هيكلا ضئيلا، شمعي اللون، وعيناه «لا تبتسمان» كما كانتا في السابق.. فقال لهم: "الوداع إنني ذاهب لأموت.. تحياتي إلى جميع الأصدقاء والمعارف، وقولوا لبونين أن يواظب على الكتابة، لأنه سيصبح كاتباً له شأنه".

وانتقل الكاتب إلى بادن ليقضي آخر أيامه فيها، وفي ١٥ يوليو سنة ١٩٠٤، وبعد أن استنفدت جميع وسائل الطب، أشار الطبيب بتقديم كأس من الشمبانيا، ولما كان تشيخوف طبيباً لم يفته المعنى من تقديم الكأس المذكور، فنهض في فراشه وقال للطبيب بالألمانية: "إنني أموت!"،

ثم رفع الكأس بيده وقال لزوجته مبتسماً: "لقد مضى عليّ زمن طويل لم أذق خلاله الشمبانيا وأفرغ الكأس في جوفه حتى الثمالة"، واضطجع بهدوء على جنبه الأيسر، وسكت سكتته الأبدية.

وعند مطلع فجر اليوم التالي نقل جثمان الكاتب إلى الحدود الروسية فتلقاه أناس من الموظفين لم يسمعوا باسمه قط! فوضعوا نعشه في عربة كتب عليها «عربة الأسماك والمحارات» ثم وصل الجثمان إلى بطرسبورغ ولم يدر به أحد بسبب سوء تفاهم وقع في إرسال برقية النعي. وفي السابع عشر من يوليو سنة ١٩٠٤ نقل الجثمان إلى موسكو، وكان في استقباله جمهور غفير من النواب ورجالات الفن والأدب والعلم يحملون مئات الأكاليل وباقات الزهور، وكان ذلك الاستقبال بمثابة كلمة شعبية كبرى في تقدير فداحة الخسارة.

ومن ثَمَّ شيع أنطون بافلوفيتش تشيخوف إلى «دير العذارى» المعروف بدير نوفوديفيتشي بالقرب من موسكو ودفن فيه.

وفي ١٦ يناير سنة ١٩٣٣، أي بعد تسع وعشرين سنة على وفاة الكاتب الروسي العظيم، نبش القبر بحضور رهط من الناس يمثلون مسرح موسكو الفني و«الجمعية التشيخوفية»، وذوي الكتب وأخرجوا النعش المطوق بالزنك، ونقلوه إلى مقبرة جديدة في موسكو أعدتها الحكومة السوفياتية لنوابغ الكتاب والفنانين الروس، ودفن في ضريح فخم يليق بمقامه الأدبي، وكان موقع الضريح في «حديقة الكرز» تذكاراً لآخر تمثيلية وضعها الكاتب في أواخر أيامه.

كلمات مأثورة لتشيخوف:

«آن الأوان! إن أحداثاً هائلة تقترب منا، إن عاصفة قوية عنيفة تسير نحونا قدماً، إنها تقترب شيئاً فشيئاً، وستنسف من مجتمعنا السآمة والكسل وعدم المبالاة والنفور من العمل».

من مسرحية «الأخوات الثلاث»

«من الأقوال الدارجة أن الإنسان بحاجة إلى ثلاث أذرع من الأرض، والواقع أن هذه الأذرع الثلاث تلزم لجثة الإنسان فقط، وأما الإنسان الحي، فلا تسعه ثلاث أذرع من الأرض، ولا بيت كامل؛ وإنما الطبيعة قاطبة، بل الكرة الأرضية بأسرها، ليتمكن في فسحها من إظهار جواهر روحه وخصائصها».

من قصة «عنب الثعلب»

«مهمة الإنسان إما في لا شيء، وإما في شيء واحد: الحب المتناهي للقريب».

و«هناك طراز من الناس يتعمدون الهزء بغيرهم في كل مظهر من مظاهر الحياة، وهم لا يستطيعون العبور بجائع أو منتحر دون أن يقولوا به قولا لئيما».

من قصة «الرجل المجهول»

«الزواج بلا حب كالعبادة بلا إيمان، وهذا ضرب من النذالة لا يليق بكرامة الإنسان».

من قصة «المبارزة»

«حياة البطالة والفراغ مشوبة بالقذارة».

من مسرحية «العم فانيا»

– «ماذا تكون حالنا لو أن الحياة الإنسانية كانت مبنية على عدم مقاومة الشرور؟!

– لا شيء بتاتاً.. فعدم مقاومة الشرور يفسح المجال لعبث الإدارة الآثمة، وهذه –والمدنية معها– لا تبقيان على الأرض حجراً على حجر!

– ومن يتبقى على الأرض إذن؟!

– جماعات من الأشقياء!».

من قصة «أناس طيبون»

مسرحيات من فصل

١- أغنية التَّم. ٢- الدُّب.

٣- مفجوع رغم أنفه. ٤- ضرر التبغ.

أغنية التم

أشخاص الرواية:

فاسيلي فاسيليفتش سفتلوفيدوف: ممثل هزلي، له من العمر ثمان وستون سنة.

نكيتا إيفانيتش: ملقن المسرح، شيخ أيضاً.

(تجري الرواية داخل مسرح ريفي ليلا. وذلك بعد الانتهاء من حفلة التمثيل. المسرح خاو. وإلى اليمين منه عدة أبواب غير مزينة وقد ثبتت بلا إحكام، وكلها تؤدي إلى غرفة التزيين والملبس، وفي صدر المسرح، وإلى يساره، أكوام من سقط المتاع. وفي وسطه مقعد مقلوب. الوقت ليل.. ظلمة حالكة.. سفتلوفيدوف، في لباس المهرج، يخرج من غرفة التزيين والملبس، يحمل شمعة بيده ويقهقه).

شفتلوفيدوف: حقًّا.. إنها لنكتة، بل مهزلة المهازل. لقد غفوت في غرفة التزيين والملبس. انتهى التمثيل منذ وقت طويل وخرج كل من كان في المسرح. وأما أنا، فبقيت في مكاني هادئاً. أرسل الشخير تباعاً، إيه أيها الشيخ المتضجر! إنك لأشبه بكلب عتيق. تكومت على كرسيك وغفوت.

إنك لرجل ذكي تستحق الثناء (يصرخ) إيغوركا!.. يا للشيطان.. أين أنت يا بتروشكا! أغفوتما أيها اللعينان؟ فليتنفس من فميكما مائة شيطان وعفريت.. إيغوركا!.. (يعدل المعقد، ويجلس عليه ويضع الشمعة على الأرض): لا أسمع شيئاً سوى الصدى.. نقدت اليوم كلاً من إيغوركا وبتروشكا ثلاثة روبلات مقابل ما أبدياه من جهد في التمثيل ثم خرجا.. وهيهات أن أعثر عليهما ولو بمساعدة كلاب الأثر.. ويغلب على ظني أن هذين اللعينين أقفلا عليّ باب المسرح (يهز رأسه) إنني ثمل.. أفٍّ.. كم صببت في جوفي من النبيذ والجعة من أجل «الجمعية الخيرية» يا الله.. إنني أشعر كأن النار تلتهم جسمي.. وكأن اثنى عشر لساناً تهجع في فمي.. إنه لأمر مستقبح حقًّا (يتوقف) يا للغباوة! سكرتَ أيها الأحمق العتيق (يخاطب نفسه) لقد كنت وأنت تجرع الخمر فرحاً مسروراً دون أن تدرك الداعي لسرورك هذا.. أف.. رباه.. إن خاصرتيّ تتمزقان، ورأسي يتصدع، والرعشة تنتاب جسمي كله، ونفسي فاترة قاتمة.. وكأنها ترقد في أعماق قبر.. فإذا كنت لا أشفق على نفسي، فعليّ على الأقل أن أشفق على شيخوختي.. (يتوقف) أجل.. الشيخوخة، فكيفما راوغت وتشجعت وماجنت فلقد عشت أيامي.. ثمان وستون سنة انصرمت.. بخٍ.. بخٍ.. احتراماتي! لا مفرّ من النهاية.. لقد أفرغت الزجاجة كلها في جوفي، ولم يبق في قعرها إلا الشيء القليل، والقليل جدًّا.. بقيت الثمالة. أجل.. هكذا هي الحياة يا فاسيوشا.. فعليك –سواء أردت أم لم ترد– أن تعوّد نفسك تمثيل دور الموت! وهل ملك الموت في مكان قصي؟ (يتطلع إلى الأمام) ويلاه.. إنني أشاهد لأول مرة هذا المسرح في ظلمة الليل، بالرغم من

مضي خمس وأربعين سنة على عملي فيه. حقًّا إنه لشيء طريف (يقترب من صف الأنوار) لا أرى شيئاً.. غير أن كوة الملقن تتراءى لناظري قليلا، وهذا هو صندوق الرسائل، ومِقرأ النوتات أيضاً.. وكل ما تبقى ظلام حالك بل هوة دكناء سحيقة.. إنها لأشبه بالقبر الذي يختفي فيه الموت.. (أحْ).. ما هذا البرد؟.. ريح تهب في قاعة المسرح كما تهب في مدخنة الموقد.. ها هنا المكان الحقيقي الذي تُستدعى فيه الأرواح.. يا للشيطان.. إنها لحالة مرعبة تسري الرعدة في الجسم! (يصرخ): إيغوركا، بيتروشكا.. يا للأبالسة.. أين أنتما؟ رباه.. ما لي أردد هذه الشتائم؟ عليّ ألا أستعمل الألفاظ النابية.. وأن أهجر الخمر.. لقد أصبحت طاعناً في السن وحانت ساعتي.. فالناس في الثامنة والستين من عمرهم يتفرغون إلى الصلاة والعبادة، ويتأهبون لاستقبال الموت.. وأما أنا.. آه.. يا إلهي لا أزال أردد العبارات البذيئة، وهيئتي هيئة سكير مدمن، وهأنذا أرتدي رداء المجون.. كلا.. عليّ أن أسرع وألقي بهذا الرداء جانباً، يا للهول إني إن بقيت على هذه الحالة طيلة الليل فيحتمل أن أهلك رعباً (يذهب إلى غرفة التزيين والملبس، وفي هذا الوقت يخرج نيكيتا إيفانتيش من غرفة التزيين وهو يرتدي رداء أبيض اللون).

سفتلوفيدوف: (يرى نيكيتا إيفانيتش، فيصرخ من الذعر، ويرتد على عقبيه) من أنت؟ ماذا تريد؟ من تريد؟ (يضرب الأرض بقدميه) من أنت؟

نيكيتا إيفانيتش: هذا أنا!

سفتلوفيدوف: من أنت؟

نيكيتا إيفانيتش: (يقترب منه على مهل) هذا أنا، الملقن نيكيتا إيفانيتش.

سفتلوفيدوف: (يرتمي على المقعد خائر القوى، ويتنفس بمشقة وهو يرتعش فرقاً) رباه من هذا؟ أأنت نيكيتوشكا؟ ماذا تفعل هنا؟

نيكيتا إيفانيتش: إنني أقضي الليل في غرفة التزيين، فرجائي إليك ألاَّ تطلع ألكسي فوميتش على جلية الأمر.. ثق بأنني لا أجد مكاناً آوى إليه.

سفتلوفيدوف: آه يا نيكيتوشكا.. دعاني الجمهور هذه الليلة ست عشرة مرة للظهور على المسرح، وقدّم لي ثلاث باقات من الزهور، وأشياء كثيرة أخرى.. لقد كاد الناس يطيرون فرحاً، لكن أحداً منهم لم يحاول إيقاظ هذا الشيخ السكير ولم يحمله إلى بيته.. يكيتوشكا.. إنني شيخ. ولي من العمر الآن ثمان وستون سنة.. إنني مريض.. ونَفَسي يتلاشى شيئاً فشيئاً.. (يلقي بنفسه على كتف الملقن ويبكي) لا تذهب يا نيكيتوشكا إنني شيخ عاجز.. لقد حانت ساعتي يا للهوْل.. يا للهول!

نيكيتا إيفانيتش: (بلطف واحترام) فاسيلي فاسيليتش.. لقد آن لك أن تعود إلى بيتك هيا.

سفتلوفيدوف: لن أذهب.. ليس لي بيت.. كلا.. كلا.. كلا.

نيكيتا إيفانيتش: رباه.. أنسيت أين تسكن؟

سفتلوفيدوف: لا أريد الذهاب إلى بيتي لا أريد.. إنني وحيد ولا أهل لي ولا أقارب. لا زوجة لي ولا أطفال.. إنني وحيد مثل الهواء في الخلاء!

سأموت ولن يذكرني أحد.. إنني أخشى البقاء في بيتي وحيداً.. ليس هناك من يشمل هذا السكير بعنايته. ليس له من يهدهده ويحمله إلى فراشه.. فمن أنا؟ وأي نفع يرجى مني؟ ومن يحبني! لا يحبني أحد يا نيكيتوشكا.

نيكيتا إيفانيتش (بعين دامعة): كفاك أن الجمهور يحبك!

سفتلوفيدوف: لقد خرج الجمهور بعد التمثيل وتفرق، إنه يغط في نومه الآن وقد أسدل ستار النسيان على ممثله الهزلي، كلا.. إنني أصبحت على هامش الحياة.. وليس لي من يحبني فلا زوجة لي ولا أطفال.

نيكيتا إيفانيتش: أهذا هو ما يحزنك؟

سفتلوفيدوف: إنني إنسان مخلوق حي.. وتجري في عروقي دماء لا ماء! إنني شريف ومتحدر من أرومة كريمة.. كنت قبل أن أتردى في هذه الهوة جنديًّا في مدفعية الجيش، كنت شابًّا قويًّا جميلا أميناً جريئاً متحمساً.. رباه أين ذهب ذلك كله؟ وأي ممثل كنت فيما مضى من الأيام؟ (ينهض مستنداً إلى يد الملقن) أين ذهب ذلك كله؟ أين هي تلك الأيام؟ رباه إنني لأتطلع إلى هذه الهوة الآن وأذكر كل شيء، لقد ابتلعت هذه الهوة خمساً وأربعين سنة من حياتي، وأية حياة حافلة كانت يا نيكيتوشكا؟ إنني لأسدد نظري إلى أعماق هذه الهوة فأرى فيها كل شيء واضحاً بجميع دقائقه، أرى مرح الشباب والإيمان، وحرارة العواطف وحب النساء، أجل.. النساء بانيكيتوشكا.

نيكيتا إيفانيتش: آن لك أن تنام. فاسيلي فاسيلتش، هيا.. هيا.

سيفتلوفيدوف: أذكر أنه حدث –لما كنت ممثلا فتيًّا، وكانت حرارة عواطفي في أوجها– أن أعربت لي إحدى الفتيات عن إعجابها بتمثيلي وأحبتني.. كانت فتاة رشيقة، ممشوقة القد كشجرة الحور، غضة، بريئة، شريفة، تلتهب غيرة مثل فجر الصيف، فابتسامتها اللطيفة تتألق نوراً، وعيناها الزرقاوان تشعان بالبريق، لو سلطتا على ظلام حالك لبددتاه وانتشر الضياء. إن أمواج البحر تتكسر على الصخور، ولكن على أمواج شعرها المجعد تتكسر الجلاميد وكتل الجليد! أذكر مرة أنني وقفت أمامها، كما أقف أمامك الآن وكانت رائعة وقتئذ أكثر من أي وقت مضى، فألقت عليَّ نظرة لن أنساها حتى في القبر، كلها دلال.. قطيفة مخمل.. عمق بريق.. صبا.. سكرت لمرآها هذا، وسقطت أمامها راكعاً، وقد غمرني شعور بأنني أسعد مخلوق (يتابع بصوت خافت) وكانت تقول لي: اهجر المسرح.. اهـ.. جر.. ال.. مسـ.. ر.. ح.. أتفهم ما أقوله لك؟ كان بوسعها أن تحب ممثلا لكنها أبت على نفسها أن تكون زوجة له.. وأذكر أنني مثلت في ذلك اليوم دور الماجن المنحط.. كنت أقوم بدوري وأحس أن عيني تتفتحان على حقيقة ما.. لقد أدركت إذا ذاك أن ما يسمونه فنًّا مقدساً إن هو إلا خداع وهذيان، وأنني لست إلا عبداً مهرجاً وألعوبة يتلهى بها الناس.. أجل فهمت الجمهور وقتئذ فلم أعد أثق بالتصفيق ولا بباقات الزهور، ولا بالتظاهر الحماسي.. كان الجمهور يصفق لي ويبتاع رسمي ومع ذلك كنت غريباً عنه، بل رجساً، فاجراً على وجه التقريب، كان يتحكك بي ويتعرف إلي لإرضاء خيلائه فقط، لكنه لا يتنازل أن يزوجني إحدى شقيقاته أو بناته.. إنني لا أصدق الجمهور (يهبط على المقعد) إنني لا أثق به.

نيكيتا إيفانيتش: لقد ضمر وجهك يا فاسيلي فاسيليتش فغدوت مخيفاً أرجوك أن تذهب معي إلى بيتك.

سفتلوفيدوف: كنت في شبابي أتمتع بتمام صحتي وعافيتي، وبعد تلك القصة –قصة الفتاة– أصابني السقم، وأخذت أتسكع بلا هدف وأعيش مضطرباً ذاهلا. لقد مثلت أدوار الهازلين الماجنين، فأفسدت العقول والنفوس، فانحط لساني واعوج! وفقدت صورتي وملامحي! لقد مضغتني تلك الهوة السوداء وابتلعتني.. إنني لم أشعر بذلك سابقاً وأما اليوم فقد استيقظت فتطلعت إلى الخلف فوجدت نفسي أجر ثماني وستين سنة. وجدت الشيخوخة، لقد غنيت أغنيتي (ينتحب) لقد غنيت أغنيتي.

نيكيتا إيفانيتش: عزيزي فاسيلي فاسيليتس.. أبتاه.. هدىء من روعك (يصرخ) بتروشكا! أيغوركا!

سفتلوفيدوف: لديّ المواهب، والقوة، والفصاحة، وفي هذا الصدر (يدق بقبضته على صدره) أوتار جمة تصدح بجميع الألحان، آه.. سأختنق.. اسمع أيها الشيخ، دعني أتنفس قليلاً.. اسمع هذا المقطع من رواية «بوريس غودونوف»:

«ظل إيفان الرهيب تبناني..

ومن القبر أحيا ديمتري..

وبذا الاسم دعاني..

هيج الشعوب إلى جانبي.

وكان "بوريس" من قرباني..

أنا ولي العهد.. كفاني الرضوخ لتلك البولونية المعتزة.. كفاني..».

والآن (بسرعة) قف.. استمع إلى هذه المقطوعة.. من «الملك لير» تصور سماء تكاثفت فيها الغيوم القاتمة والمطر يهطل.. والرعد ر ر ر.. والبرق ز ز ز. ثم: «اغضبي أيتها الرياح..

واعصفي.. حتى تتمزق الوجنات..

وأنت أيتها المياه الهاطلة..

تدفقي كريح زعزع..

واغمري الأبراج

وابلغي "ديك الرياح"..

وأنت أيتها النيران الكبريتية المتأججة..

يا مكتسحة الأحراج..

يا نذيرة سهام الرعود القاصفة..

هبّي فوق رأسي.. وألهبي شيبتي

وأنت أيتها الرعود السماوية المزعزعة

انقضي على الطبيعة دفعة واحدة

واسحقي الكرة الأرضية بأسرها..

وبعثري في الهواء تلك البذور

التي تلد الناس الكافرين بالنعم»

(على عجل) إليَّ إليَّ بكلمات النديم.. هات جواب النديم إذ ليس لدي متسع من الوقت.

نيكيتا إيفانيتش (يمثل دور النديم): «إيه إشبيني.. أفضل لك أن تقبع تحت سقف البيت من أن تتسكع في الخارج تحت هذا المطر المنهمر.. فنصيحتي لك أيها العم أن تسأل بناتك الصفح، فهذه ليلة ممطرة، لا تميز في مصيبتها بين الحكيم والأحمق».

سفتلوفيدوف: «وأنت أيتها النيران والعواصف..

ازأري ما أوتيت من قوة..

اعصفي، وحطمي، وأحرقي..

فما الذي يدعوك إلى الشفقة بي؟

أنتن لستن بناتي..

ولن ألومكن على قسوتكن..

ولستن من أورثتهن ملكي..

وأوليتهن حناني وعطفي».

قوة.. موهبة.. فنان.. لنأخذ شيئاً آخر قديماً يهزّ العواطف. لنأخذ مقطوعة من «هاملت».. (يقهقه بملء شدقيه) سأشرع، هيَّا (يمثل دور

هاملت). «ها هم أولاء العازفون على المزامير.. هات المزمار (يوجه الكلام إلى نيكيتا إيفانيتش) يخيل إليّ أنك تضايقني كثيراً».

نيكيتا إيفانيتش: «ثق أيها الأمير أن الداعي لذلك كله هو حبي لك وإخلاصي للملك».

سفتلوفيدوف: «إن هناك أموراً لا أدرك كنهها كل الإدراك. اعزف لي شيئاً».

نيكيتا إيفانيتش: «لا أستطيع أيها الأمير».

سفتلوفيدوف: «أناشدك الله أن تعزف شيئاً».

نيكيتا إيفانيتش: «إنني لا أحسن العزف على المزمار بتاتاً».

سفتلوفيدوف: «إن العزف على المزمار سهل كالكذب! خذ المزمار بيديك هكذا، وضع شفتيك هنا، وأصابعك هناك.. واعزف».

نيكيتا إيفانيتش: «إنني لم أتعلم العزف قط».

سفتلوفيدوف: «احكم الآن أنت بنفسك.. من أنا بنظرك؟ أتريد أن تلعب بي وأنت عاجز عن اللعب بهذا المزمار؟ اعتبرني كما تهوى وتحب، وبوسعك أن تذيقني مر العذاب، لكنك لن تستطيع اللعب بي، (يضحك سفتلوفيدوف، ويصفق ويخاطب نفسه قائلا): عافاك.. أعد، عافاك، يا للشيطان.. أية شيخوخة هذه؟ إنه لمن السخف أن أدعوها شيخوخة.. وإنما هي قوة تجري في عروقي.. هذا هو الشباب.. النضارة.. الحياة.. فحيث تكون المواهب يا نيكيتوشكا لن يكون محل للشيخوخة.. آه..

وهنت قواي.. وخارت. قف دعني أستعد شعوري.. آه.. يا إلهي.. رباه.. استمع الآن إلى هذه المقطوعة التي تطفح رقة وعذوبة، إنها الموسيقى بعينها صه.. صه.. «أوكرانيا.. لياليها هادئة.. وسماؤها صافية شفافة.. ونجومها ساطعة برّاقة.. لياليها تقهر الوسن.. وتأبى الهواء.. وتكتفي بالنسيم ليداعب أوراق شجر الحور الفضية» (يسمع قرقعة عند الباب ويصرخ) من هناك؟

نيكيتا إيفانيتش.. أظن أن بتروشكا وإيغوركا قد عادا.. مواهب يا فاسيلي فاسيليستش.. مواهب!

سفتلوفيدوف (يتطلع إلى الباب حيث القرقعة ويصرخ) إليّ يا نسري. (ثم يخاطب نيكيتا إيفانيتش) هيّا لنرتدِ ملابسنا.. ليست هنالك أية شيخوخة، وكل ما يقال في هذا الصدد إن هو إلاّ لغو وهذر.. (يضحك مغتبطاً) ما الذي دهاك يا نيكيتوشكا. ما الذي يدعوك إلى البكاء ويحملك على التَّنَخع؟ كلا أيها الشيخ كلا.. هذا أمر غير مستحب، تشجع. ارفع رأسك (يحتضنه ودموعه تسيل على خديه) لا لزوم للبكاء، فحيث الفن والمواهب، لن يكون مجال للشيخوخة، والعزلة.. والمرض، بل الموت نفسه يكون بعيداً (يبكي هو أيضاً) إيه نيكيتوشكا.. لقد غنينا أغنيتنا.. وما هي المواهب التي بقيت لدينا.. إنني ليمونة قد عصرت! إنني أسطوانة من جليد مدلاة! إنني مسمار يعلوه الصدأ.. وأنت.. أنت برذون مسرح عتيق.. هيا بنا.. (يذهبان).

سفتلوفيدوف: أين هي مواهبي الآن؟ إنني لم أعد أصلح للمسرحيات الجدية، ولا لدور في حواشي هذه المسرحيات.. أتذكر ذلك المقطع من «عطيل» يا نيكيتوشكا؟ «اسألك الصفح يا راحتي ويا رفاهيتي.. واصفحوا عني أيها الجنود.. ويا معارك المجد والفخار.. ويا حصاني الجموح.. ويا جوي الطبول.. ويا نداء الأبواق.. وعلم المملكة.. ويا مجالي الشرف والعظمة.. ويا بطولة المقاتلين الأمجاد.. اصفحوا عني جميعاً».

نيكيتا إيفانيتش: مواهب.. مواهب.

سفتلوفيدوف: إليك هذا المقطع أيضاً من مسرحية «ويلٌ من الحكمة».

لغريبويدوف: «فلأنطلق من موسكو.. إنني لن أعود إلى هذا المكان ثانية.. إنني لأركض دون أن أتلفت يمنة أو يسرة.. أركض في هذا الكون باحثاً عن ركن تلجأ إليه الكرامة المهانة.. هات العجلة.. هاتها».

(يخرج مع نيكيتا إيفانيتش)

(ويسدل الستار ببطء)

الدُّب

أشخاص الرواية:

إيليفا إيفانوفنا بوبوفا: أرملة على وجنتيها بعض النقر.

غريغوري ستبانوفيتش سميرنوف: غني في العقد الرابع من عمره.

لوقا: خادم بوبوفا، شيخ طاعن في السن.

(في بيت بوبوفا. وفي غرفة استقبالها. بوبوفا في لباس الحداد. تمسك بيدها صورة فوتوغرافية، ولا ترفع النظر عنها، ولوقا (الخادم يقف أمامها).

١

لوقا: مولاتي.. إنك لتجلبين الأذى لنفسك فقط.. فالخادمة والطاهية خرجتا تتنزهان، وتجمعان التوت البري من الأحراج. وكل كائن حيّ.. يسر في هذا الطقس اللطيف.. حتى إن قطتنا تسعى إلى ما يسرها، فها هي ذي تروح وتغدو في الفناء تصطاد العصافير.

وأما أنت.. فإنك تقبعين طيلة النهار في الغرفة، كأنك في دير. لقد انقضت سنة كاملة، وأنت حبيسة في دارك.

بوبوفا: لن أخرج من هذا البيت أبداً.. وما الذي يدعوني إلى الخروج؟! انتهت حياتي! فهو يرقد في القبر، وأنا قبرت نفسي بين هذه الجدران الأربعة. فكلانا ميت!

لوقا: لا، لا سمح الله يا مولاتي.. توفى الله نقولاي ميخايلوفتش، فهذه إرادته، وللمرحوم ملكوت السموات. وأما أنت، فقد حزنت على زوجك ما فيه الكفاية، ولا يجوز لك أن تقضي العمر كله في البكاء والنحيب. وأقول لك بهذه المناسبة: إن عجوزتي أيضاً قد توفاها الله في يوم من الأيام.. فحزنت عليها، وبكيتها شهراً. ثم سلوتها.. لأن الحداد عليها طول العمر.. لن يبعثها ثانية إلى الحياة (يتنهد).. لقد نسيت جيرانك كلهم يا سيدتي، وأقلعت عن الأسفار والرحلات، وغدوت لا تقبلين الزائرين.. وأستحميك العذر قلت لك إننا أصبحنا نعيش مثل العناكب ولا نرى للنهار ضوءاً. أما رداء خدمتي، فقد أكلته الفئران، لعدم استعمالي إياه.. ربما كنتِ على حق في منهجك هذا لو لم يكن حواليك أناس طيبون، غير أن المنطقة تعج بالسادة الأفاضل، ففي قرية ريبلوفه يعسكر طابور وضباطه يقطرون حلاوة.. وهناك في كل أسبوع حفلة راقصة وفي كل يوم تعزف الموسيقى العسكرية.. إيه يا مولاتي.. إنك لصبية جميلة فاتنة.. إنك مزيج من الدم والحليب.. ولا ينقصك شيء سوى الحياة والابتهاج.. فالجمال لا يمنح للمرء إلى الأبد.. فإذا ما انقضت عشر سنوات، من عمرك.. نفسك تواقة للتبختر في الطرق.. تجرين ثوبك الفضفاض، وتثيرين الغبار في أعين الضباط.. فأسرعي.. قبل فوات الأوان!

بوبوفا: (بإصرار) أرجوك ألاّ تعود إلى مثل هذا الحديث، فأنت تدري تماماً أن الحياة فقدت كل قيمة في نظري منذ أن توفي نيقولاي ميخايلوفتش. وإذا ما تراءى لك أنني حيَّة، فما ذلك إلا مظهر خارجي لا غير.. لقد أقسمت بألا أنزع لباس الحداد وألا أشاهد النور حتى أنزل

القبر. أسامع أنت؟ فليكن شبحه شاهداً على ما أكنه له من حب.. أجل.. لا أفشي سرًّا إن قلت لك إنه كان يعاملني معاملة جائرة قاسية.. بل لم يكن أميناً في حياته الزوجية، ومع ذلك.. سأظل مخلصة له حتى النفس الأخير. وسأبرهن له، كيف يكون حبي له، وسيرى في ذلك العالم الآخر أني ما زلت أمينة له، كما كنت قبل مماته.

لوقا: أليس من الأفضل لك يا مولاتي أن تخرجي إلى الحديقة لتتنزهي بدلا من إضاعة الوقت في مثل هذا الحديث؟ أتأمرين أن أعد لك الحصان «توبي» أم «الهائل»؟

بوبوفا: آه.. (تبكي).

لوقا: مولاتي.. أماه «ماتوشكا».. ما بك! ليكن المسيح معك.

بوبوفا: لقد أحب المرحوم الحصان «توبي»، وكان دائماً يمتطيه في زياراته لأسرتي كورتشاغين وفلاسوف، أتذكر كيف كان يجذب لجامه بشدة، ويسوسه ببراعة تامة! أتذكر تلك الطلعة الفروسية الجميلة؟ آه.. مسكين «توبي» إني آمر السائس بأن يقدم له حصة إضافية من الشوفان.

لوقا: تأمرين أمراً.

(رنين جرس عنيف)

بوبوفا: (وقد أصيبت برعدة) من ذا؟ قل للزائر: إنني لا أقابل أحداً أبداً.

لوقا: سمعاً وطاعة (يخرج).

٢

(يوبوفا وحدها)

بوبوفا: (تنظر إلى رسم فوتوغرافي) ها أنت ذا ترى با نيقولاي كيف أستطيع أن أحب وأسامح، وثق بأن حبي لن ينطفئ إلا عندما يقف قلبي عن نبضه. (تضحك من خلال الدموع) ألا تخجل من سلوكك نحوي؟ إنني زوجة أمينة، أقفلت الباب على نفسي، وسأظل أمينة لك حتى القبر.. آه منك ألا تخجل من أفعالك؟ لقد كنت تخونني، وتسبب لي المشاكل، وتتركني في البيت وحيدة أسابيع بكاملها.

٣

(بوبوفا ولوقا)

لوقا: (يدخل مرتبكاً) في الباب رجل يريد مقابلة مولاتي.

بوبوفا: ألم تقل إنني منذ وفاة زوجي لم أقابل إنساناً؟

لوقا: قلت له ذلك، إلا إنه أبى الإصغاء إليّ، وقال إنه أتاك في مسألة هامة جدًّا..

بوبوفا: إنني.. لا أقابل زائرين أبداً.

لوقا: أفهمته حقيقة الأمر، لكنه رجل ملحاح، شتام، اقتحم البيت عنوة، وهو الآن في قاعة الطعام.

بوبوفا: (مضطربة) لا بأس، دعه يتفضل.. يا له من جاهل.

(يخرج لوقا)

بوبوفا: هؤلاء الناس، صعاب المراس. ما الذي يريدونه مني! لماذا يعكرون عليَّ راحتي وهدوئي؟ (تتنهد) كلا.. لابد من الانتقال إلى الدير (تتأمل قليلا) أجل إلى الدير.

٤

(بوبوفا، لوقا، سميرنوف)

سميرنوف: (يدخل ويخاطب لوقا) حقًّا إنك لشيخ سمج، ثرثار، حمار، (إذ يرى بوبوفا ينحني أمامها باحترام) سيدتي لي الشرف بأن أقدم لك نفسي. أنا غريغوري ستيبانوفيتش سميرنوف ضابط في المدفعية متقاعد، ومالك أراض، اضطررت إلى إزعاجك لسبب هام جدًّا.

بوبوفا: (دون أن تقدم له يدها) وما الذي تريده؟!

سميرنوف: كان لي الشرف بأن أكون من معارف المرحوم زوجك. وتوفي وهو مدين لي بمبلغ ألف ومائتي روبل، ولما كانت عليّ فوائد مستحقة الدفع غداً للبنك الزراعي أتيتك راجياً أن تتفضلي، وتدفعي لي اليوم، المبلغ المطلوب من زوجك.

بوبوفا: ألف ومائتا روبل؟ ولأي شيء؟

سميرنوف: هي ثمن الشوفان.

بوبوفا: (تتنهد وتقول للخادم لوقا) لا تنس يا لوقا أن تطلب من السائس أن يقدم حصة إضافية من الشوفان للحصان «توبي».

(يخرج لوقا)

بوبوفا: (تخاطب سميرنوف) إذا كان المرحوم نيقولاي ميخايلوفتش مديناً لك بالمبلغ الذي ذكرته، فمن البديهي أن أقوم بتسديده لكنني الآن لا أحمل المبلغ المطلوب فأرجوك أن تنتظر إلى بعد غد حتى يعود وكيلي من المدينة وآمره أن يسدد الحساب. أجل، لن أتمكن الآن من تلبية طلبك ولا بأية صورة كانت. يضاف إلى ذلك أن هذا اليوم تكتمل السنة على وفاة المرحوم زوجي، وتراني في حالة نفسية لا أرغب معها البحث في مسائل مالية.

سمير نوف: وأنا الآن في حالة نفسية أشعر معها بأنني إن لم أدفع الفوائد غداً للبنك الزراعي فستحجز أملاكي، وستنقلب حياتي رأساً على عقب.

بوبوفا: بعد غد فقط تقبض مالك.

سميرنوف: إنني بحاجة ماسة إلى المال اليوم، وليس بعد غد.

بوبوفا: المعذرة. إنني عاجزة عن دفع المبلغ اليوم.

سمير نوف: وإنني عاجز عن الاصطبار حتى بعد غد.

بوبوفا: وماذا أفعل ما دمت عاجزة عن الدفع الآن؟

سميرنوف: إذن أنت عاجزة عن الدفع؟

بوبوفا: أجل عاجزة.

سميرنوف: وهذه هي كلمتك الأخيرة؟

بوبوفا: أجل الأخيرة.

سميرنوف: الأخيرة نهائيًّا؟

بوبوفا: نهائيًّا.

سميرنوف: أشكرك جدًّا.. فلنحرر ذلك (يهز كتفيه) ويريدون مني أن أكون هادئ الأعصاب. سيقابلني المحصل في الطريق.

ويسألني: ما الداعي إلى غضبك هذا يا غريغوري ستيبانوفيتش؟ فأجيبه: حلمك.. وكيف لا أغضب؟ إنني بحاجة قصوى إلى المال.. سعيت في طلبه منذ أمس الباكر، وعرّجت على مدينيّ جميعاً، ولم يدفع لي أحد منهم دينه.. لقد كدت أهلك مثل الكلب.. قضيت ليلي في العراء منطوياً على نفسي إلى جانب برميل ماء.. وأخيراً جئت إلى السيدة ميخايلوفتش بعد أن قطعت مسافة سبعين فرسخاً مسافراً على أمل أن أقبض ديني وإذ بها تطعمني «حالات نفسية»، أفلا يحق لي أن أغضب؟

بوبوفا: أظن أنني قلت لك بصريح العبارة: عندما يعود وكيلي، تقبض مالك.

سميرنوف: إنني لم آت إلى الوكيل وإنما أتيت إليك. ولأي عفريت يلزمني وكيلك؟ عفواً!

بوبوفا: إنني لم أعتد سماع مثل هذه العبارات النابية، واللهجة المستغربة، ولن أصغي إليك أكثر مما أصغيت.. (تخرج بسرعة).

(سميرنوف وحده)

سميرنوف: يا للدلال.. حالة نفسية.. إن سنة انقضت على وفاة زوجها.. ولكن أينبغي أن أدفع الفائدة أم لا؟ هه.. مات زوجها.. وحالة نفسية.. والوكيل سافر إلى مكان ما.. وغير ذلك من الخزعبلات.. ما العمل؟! أأفر من أصحاب الديون في منطاد؟ أم أضرب رأسي بالحائط؟ ذهبت إلى غروزديف فلم أجده في بيته.. وذهبت إلى ياروشينيتش فاختبأ، وذهبت إلى كوريتسين فتشاتمنا وكدت أقذف به من النافذة.. وذهبت إلى مازوتوفا فوجدتها مريضة بالكوليرا.. وجئت إلى هذه وإذا هي في «حالة نفسية» لا تسمح لها بالدفع.. لم أقبض من هؤلاء الأشقياء شيئاً، والسبب في ذلك أنني كنت قد دللتهم أكثر مما يستحقون.. أمربية أنا لهم أم خادمة؟ أجل. لاطفتهم في السابق كثيراً. وأما الآن، فسيعرفونني.. إنني لن أسمح لأحد بممازحتي أبداً. وسأظل مقيماً هنا إلى أن أقبض حقي. إنني جدُّ حانق اليوم، ونفسي من الحنق منقبضة.. رباه.. إنني تعب اليوم (يصرخ) أيها الخادم!

٥

(سميرنوف ولوقا)

لوقا: (يدخل) ما حاجتك؟

سميرنوف: ايتني بقدح من الكفاس[١] أو الماء.

---

[١] شراب روسي يستخرج من الخبز الأسود.

(يخرج لوقا)

سميرنوف: (يخاطب نفسه) وأي منطق هذا؟ رجل بحاجة ماسة إلى المال، ويهدد نفسه بالشنق إن لم يحصل عليه فيأتي إلى هذه السيدة طالباً دين زوجها، فتأبى الدفع لأنها غير مستعدة اليوم للحديث في المسائل المالية.. حقًّا إنه لمنطق نسوي مُشوّش.. إنه الذي حدا بي إلى عدم حب النساء أو التحدث إليهمن، وغدوت أشعر به يهون عليّ الجلوس على برميل بارود من أن أجلس إلى جانب امرأة وأتحدث إليها! إنني جد مغتاظ من هذه السيدة. وأحس برعشة تنتاب جسمي من شدة الغيظ.. إنني لا أطيق رؤيتها ولا رؤية مثيلاتها من المخلوقات الشعرية، ويبدو لي أنني إن رأيت إحداهن ولو عن بُعد فسترتعد فرائصي، وسأصرخ طالباً من الديدبان النجدة.

٦

(سميرنوف ولوقا)

لوقا: (يدخل ويقدم له الماء) السيدة مريضة. وهي غير مستعدة لمقابلة أحد.

سميرنوف: أُخرج!

(لوقا يخرج)

سميرنوف: تقول إنها مريضة ولا تستقبل أحداً، وماذا يهمني من أمرها؟؟ إنني باق هنا ولم أخرج حتى تدفع لي مالي.. (يخاطبها بصوت عال)

إن بقيت على فراش المرض أسبوعاً فسأبقى إلى جانبك أسبوعاً، وإن بقيت سنة فسأظل إلى جانبك سنة أيضاً.. سترين كيف آخذ حقي منك.. يا أماه «ماتوشكا».. ثقي بأن حدادك، والنقر التي على وجنتيك لن تؤثر فيّ.. إنني أدرى بهذه النقر! (يصرخ من النافذة مخاطباً سائق عربته) سيمون! ارفع العدة عن الفرس.. إننا لن نرحل عن هذا المكان على وجه السرعة.. إنني باق هنا.. وأما أنت فاذهب وقل للجماعة في الإصطبل أن يقدموا الشوفان للخيل.. آه منك أيها البهيم ألا ترى أن العنان اشتبك بساق الفرس الأيسر؟

سيمون: (متهكماً) لا بأس!

سميرنوف: (يرد عليه) سأريك ما المعنى من لا بأس.

سميرنوف: (يبتعد عن النافذة). شيء رديء.. حر لا يطاق.. كلهم يرفض دفع المال.. وبالأمس قضيت ليلة على أسوأ حال ممكنة.. وهذه السيدة تقول لي إنها تجر ثوب الحداد. ونفسيتها مضطربة.. آه إنني أشعر بوجع في رأسي.. أأشرب فودكا؟ أم ماذا؟ (يصرخ) أيها الخادم.

لوقا: ما الذي تريده؟

سميرنوف: ايتني بكأس من الفودكا.

(لوقا يخرج)

سميرنوف: (يجلس ويقلب النظر في نفسه) لا بأس بي.. هيئة حسنة. لباسي مغبر، وحذائي موحل، وجسمي قذر، وشعري غير مرتب، وحلتي

معفرة بالتبن. فيا أيتها السيدة، ما الذي حدا بك لأن تستقبلني كقاطع طريق؟ (يتثاءب) حقًّا.. إنها قلة حياء مني أن أظهر في غرفة استقبال كهذه وأنا على هذا الشكل.. ولكن لا بأس من استقبال كهذه وأنا على هذا الشكل.. ولكن لا بأس من ذلك، فإنني لم آت إلى هذا البيت ضيفاً وإنما دائناً، ولا يطلب من الدائنين أن يظهروا بهندام حسن.

لوقا: (يدخل ويقدم الفودكا) أتسمحون لنفسكم بالبقاء طويلا هنا يا سيدي؟

سميرنوف: (بحمق) ماذا؟

لوقا: إنني.. إنني.. لا شيء.. لقد أردت..

سمير نوف: مع من تتكلم.. اُصمت!

لوقا: (على جانب) لقد جلس هذا العفريت على رأسنا.. فيا له من حمل ثقيل.

(لوقا يخرج)

سميرنوف: إنني حانق.. وقد بلغ حنقي درجة أحس معها كأنني سأسحق العالم بأسره.. رباه.. أشعر بوعكة (يصرخ) أيها الخادم!

٧

(بوبوفا وسميرنوف)

بوبوفا: (تدخل ذابلة العينين) سيدي الكريم.. تعودتُ في وحدتي

الطويلة الابتعاد عن الأصوات البشرية، كما أنني لا أطيق الصراخ بتاتاً.. فرجائي ألا تقلق راحتي.

سميرنوف: لن أخرج من هذا البيت قبل أن تدفعي لي الدراهم.

بوبوفا: أفهمتك بلغة روسية أنني لا أحمل المبلغ الذي تطلبه الآن فانتظر إلى بعد غد.

سميرنوف: ولي الشرف أن أفهمك بلغة روسية أيضاً أن المبلغ الذي أطلبه يلزمني اليوم وليس بعد غد. فإذا لم تدفعي لي دراهمي اليوم، فسأجد نفسي غداً مضطرًّا إلى الانتحار.

بوبوفا: حقًّا إنك غريب الأطوار. قلت لك إنني لا أملك المبلغ الذي تطلبه الآن فما عساي أن أفعل؟

سميرنوف: ففي حالة كهذه أرى نفسي مضطرًّا للبقاء هنا.. سأظل في بيتك إلى أن أقبض المبلغ. سأجلس هكذا حتى تدفعي.. (يقفز فجأة) إنني أسألك سؤالًا صريحاً: أينبغي أن أدفع الفوائد أم لا؟ أو تظنين أني أمازحك؟

بوبوفا: سيدي الكريم، رجائي إليك ألا تصرخ هنا، فالمكان الذي أنت فيه ليس إصطبلا.

سمير نوف: إنني لا أسألك عن الإصطبلات، وإنما أسألك: أأدفع الفائدة المستحقة عليَّ غداً أم لا؟

بوبوفا: إنك لا تحسن السلوك في الأوساط النسائية.

سميرنوف: إنك لعلى خطأ عظيم.. إنني أتقن السلوك بين النساء كل الإتقان.

بوبوفا: كلا إنك تجهل ذلك تماماً، إنك رجل غير مهذب، فظ، فالناس المؤدبون لا يخاطبون النساء على هذا الوجه الذي تخاطبني به.

سميرنوف: حقًّا لقضية عجيبة. كيف تأمرين أن أخاطبك؟ أأخاطبك بالفرنسية أم بغيرها من اللغات؟ (يتحدث إليها بغضب، ويلثغ في اللفظ) مدام، جي فوبري.. (**Je vous pris**) إنني جد سعيد لأنك لا تدفعين لي الدراهم آه.. باردون لأنني أزعجتك.. الطقس اليوم جميل جدًّا. ولباس الحداد الذي تلبسينه يليق بك، وينسجم على قدك (يسير متبختراً).

بوبوفا: يا للحماقة والخشونة!

سميرنوف: (يغيظها) يا للحماقة والخشونة.. إنني أسيء السلوك في أوساط النساء.. يا مولاتي لقد شاهدت في حياتي نساء أكثر مما شاهدت أنت من طير الزرازير.. تبارزت ثلاث مرات من أجل النساء، وهجرت اثنتي عشرة امرأة، وتسع هجرنني.. كانت لي أيام ماجنت فيها، وغازلت، وصارحت بحبي، ونمقت الكلمات المعسولة، وتبخترت في سيري. أجل كانت لي أيام أحببت فيها، وتعذبت، وذبت.. وتجمدت، وتأوهت في ضوء القمر وبكيت.. تذوقت الحب العنيف في جميع أشكاله وألوانه، وكنت أصرخ كما تصرخ العقاعق! كنت عاطفيًّا، رقيق الحواس إلى أقصى حد، وأما الآن، فلن أتأثر بالنساء كفاني ما رأيته منهن، وثقي بأنني لن أدفع الآن درهماً واحداً في سبيل العيون السود والنظرات المغرية، والشفاه

الحمر، والنقر على الوجنات، والأقمار، والهمسات، والأنفاس المتقطعة! إنني لا أعني بذلك حضرتك بالذات، وإنما عنيت كل النساء.. فصغيراتهن وكبيراتهن مداهنات منافقات نمامات حقودات كاذبات حتى عظام الدماغ! مهمومات حقيرات حائرات عديمات الفهم والمنطق.. يبدون في الظاهر وكأنهن مخلوقات شعرية جزء من الأثير.. شبه آلهة.. وإذا ما تطلعت إلى نفوسهن لا ترى فيهم إلا تماسيح عادية.. (يتشبث بكرسيه فيطقطق ويتكسر) غير أن المثير في هذه التماسيح تصورها أن الحس الدقيق هو من مميزاتها الخاصة.. فالمرأة لا تحب أحداً سوى كلبها الصغير، وهي إن أظهرت للرجل حبًّا ففي الانتحاب والتنخُّع فقط. وإذا ما ضحى الرجل في سبيل حب امرأة وتألم، وبادلته هذا الحب فإنما بحركات الدلال محاولة القبض على أنفه بشدة؛ فمن سوء طالعك يا مولاتي أن تكوني امرأة! وإنك ولا ريب اختبرت الطبيعة النسوية في ذاتك.. بالله، ألا أخبرتني صراحة: هل رأيت في حياتك امرأة أمينة مخلصة ثابتة الوفاء؟ لم تري طبعاً. لأن الأمينات الثابتات هن العجائز الكسيحات فقط. ويسهل على الإنسان أن يرى هرة بقرنين من أن يرى امرأة أمينة.

بوبوفا: المعذرة يا سيدي.. فمن هو الأمين الثابت في الحب؟ أهو الرجل؟

سميرنوف: أجل!. هو الرجل.

بوبوفا: (تضحك بحقد) الرجل أمين ثابت في حبه! يا له من نبأ جديد! (بحدة) كيف تجيز لنفسك القول بأن الرجال أمناء ثابتون؟! إن أحسن رجل

عرفته في حياتي هو المرحوم زوجي.. أحببته بكل جوانحي، حب فتاة صبية مفكرة، قدمت له صباي وسعادتي وحياتي وملكي.. كنت أتنفس به.. وأعبده كما يعبد الوثني صنمه، ومع ذلك كله كان زوجي –هذا الذي اعتبرته أحسن رجل بين الرجال– يخونني كلما سنحت له الفرص. ولقد عثرت في درج مكتبه بعد وفاته على صندوق مليء بالرسائل الغرامية. وكان في حياته– ويا لفظاعة الذكرى– يتركني وحيدة فيخونني، ويبذر نقودي، ويستخف بشعوري.. وبالرغم من مسلكه الشائن هذا، كنت أكن له الحب والإخلاص. والأنكى من ذلك أنني لا أزال ثابتة على حبي له حتى بعد مماته. لقد حكمت على نفسي أن أدفن بين جدران هذا البيت إلى الأبد، وأن لا أنزع عني ثوب الحداد هذا حتى أنزل إلى القبر وراءه.

سميرنوف: (يضحك بسخرية) حداد! لا أفهم.. من تظنينني؟! كما أنني لا أدري السبب الذي يحملك على أن ترتدي السواد، وتقبري نفسك بين أربعة جدران في بيت.. حقًّا إن حياتك هذه لشعرية محاطة بهالة من الأسرار الخفية. إنك ولا ريب تودين أن يمر ببيتك أحد تلامذة المدرسة الحربية، أو شاب شويعر.. فيتطلع إلى نافذتك ويقول: «هنا تقطن تمارا؟ ذات الأسرار.. التي دفنت نفسها بين جدران منزلها في سبيل حبها لزوجها» أجل.. نحن أدرى بهذه الألاعيب أيتها السيدة.

بوبوفا: (ثائرة) ماذا؟ أتجرؤ على أن توجه إليّ مثل هذا الكلام؟

سميرنوف: لقد دفنت نفسك حيّة، ولكنك لن تنسي ما إن تضعي المساحيق على وجهك!

بوبوفا: كيف تتجاسر وتخاطبني على هذا النحو؟

سمير نوف: رجائي إليك ألا تصرخي في وجهي، واسمحي لي أن أنعت الأشياء بأسمائها. إنني لست وكيلك، كما أنني لست امرأة.. فمن عادتي أن أعرب عن رأيي في صراحة. آمل ألا أسمع صراخك ثانية.

بوبوفا: إنك أنت الذي تصرخ في بيتي.. ألا تتفضل وتتركني في هدوئي!

سميرنوف: ادفعي لي نقودي ومن ثمَّ أغادر هذا المكان.

بوبوفا: لن أدفع ل شيئاً.

سميرنوف: بل تدفعين.

بوبوفا: ونكاية فيك.. لن أدفع لك كوبيكاً واحداً.. هلا تدعني وشأني؟

سميرنوف: ثقي بأنه لا يسرني بتاتاً أن أكون خطيبك أو زوجك فأحسني المخاطبة ولا تتحرشي بي (يجلس) إنني أمقت المشاكل.

بوبوفا: (بغضب شديد) أتجلس أيضاً.

سميرنوف: أجل.

بوبوفا: تفضل واخرج.

سميرنوف: ادفعي لي ما لي (يتنحى جانباً) إنني حانق اليوم.. إنني لجد حانق.

بوبوفا: ألا تفهم؟ إنني لا أود التحدث إلى الوقحين! تفضل وانصرف.

(وقفة)

بوبوفا: ألا تخرج؟

سميرنوف: كلا.

بوبوفا: كلا؟

سميرنوف: كلا.

بوبوفا: لا بأس (ترن الجرس).

٨

(بوبوفا، سميرنوف، لوقا)

بوبوفا: لوقا، أخرج هذا السيد!

لقا: (يتقدم من سميرنوف) أيها السيد، لقد صدر الأمر بخروجك حالا من البيت. فليس لديك ما تفعله هنا.

سميرنوف: (يقفز) اصمت، وإلا صنعت منك «سلطة»!

لوقا: (يرتعد رعباً) رباه.. يا أصحاب الكرامات، (يقبع على الكرسي) يكاد يغمى عليّ.. شيء منكر.

بوبوفا: أين داشا؟ داشا! (يصرخ) داشا! بيلاغيا! داشا! (ترن الجرس).

لوقا: ذهب كل من في البيت إلى الحرج ليجمعوا التوت البري.. آه يكاد يغمى عليّ: ايتوني بالماء.

بوبوفا: تفضل وانصرف.

سميرنوف: ألا تحسن بك أن تخاطبيني بلطف؟

بوبوفا: (تجمع قبضتيها وتضرب الأرض بقدميها) أنت فلاح.. دب فظ.. وحش هائل.

سميرنوف: ماذا؟ ماذا تقولين؟

بوبوفا: قلت إنك دب، ووحش مخيف.

سميرنوف: (يتقدم نحوها) بأي حق تهينينني؟

بوبوفا: أجل أهينك.. أو تظن أنني أخشاك؟

سميرنوف: أو تظنين أن كونك مخلوقة شعرية يخولك الحق بأن تهينيني دون أن يلحقك عقاب. إنني أدعوك إلى المبارزة.

لوقا: رباه.. يا أصحاب الكرامات.

سميرنوف: إلى المبارزة بالمسدسات!

بوبوفا: إنني لا أخشاك، برغم اعتقادك بأن لك حلف ثور، وقبضتين قويتين، هه.. حقًّا إنك لدب فظ!

سميرنوف: إلى المبارزة.. إنني لا أسمح لأحد أن يحقرني، ولا يهمني كونك مخلوقة ضعيفة.

بوبوفا: (تحاول الصراخ) دب.. دب.. دب.

سميرنوف: لقد آن الأوان لكي نضع حدًّا لذلك الوهم الشائع القائل بأن الرجال وحدهم هم المجبرون على دفع ثمن الإهانات، فما دامت المرأة تطالب بالمساواة فلتكن.. يا للشيطان، هَيا إلى المبارزة.

بوبوفا: أتريد المبارزة بإطلاق النار؟

سميرنوف: أجل، وفي هذه اللحظة.

بوبوفا: انتظرني دقيقة واحدة. سأذهب وآتي بالمسدسات التي خلفها المرحوم زوجي. (تروح وتغدو على عجل) أية مسرة أجدها في إفراغ رصاصة في رأسك الدُّبي، فيختطفك إبليس (تخرج).

سميرنوف: سأطلق النار عليها كما أطلقها على عصفور. إنني لست طفلا ولا خنُّوصاً، ولا أعترف بوجود مخلوقات ضعيفة.

لوقا: أبتاه.. وارحمتاه! (يجثم على ركبتيه) كن طيباً، وأشفق على هذا الشبح.. تفضل واخرج من هذا البيت. لقد كدت أهلك من الرعب، وتريد المبارزة أيضاً؟

سميرنوف: (لا يصغي إلى توسلاته) المبارزة بالمسدسات هي المساواة في الحقوق. وهذا هو أس الدعوة إلى تحرير المرأة، فالجنسان في هذه الحالة يكونان متساويين. سأطلق النار عليها مبدئياً! (متهكماً).. «فليختطفك إبليس.. وسأفرغ رصاصة في رأسك الدُّبي». أية امرأة هذه؟ لقد تحمست واتقدت عيناها حنقاً، وقبلت الدعوة بلا تردد. الواقع أنني لأول مرة في

حياتي أشاهد امرأة في مثل هذه الصلابة والعناد.

لوقا: أبتاه، تفضل واخرج. وسأصلي لك طيلة حياتي!

سميرنوف: ما هذه المرأة؟ حقًّا إنها لامرأة بكل معاني الكلمة، فهي ليست من النوع المائع المتصنع، وإنما هي شعلة بارود، شهاب، وقتلها خسارة!

لوقا: (يبكي) أبتاه، رجائي إليك أن تخرج.

سميرنوف: إنني معجب بها.. أجل، إنها لتعجبني بالرغم من النقر المنثورة على وجنتيها، وأجد نفسي على تمام الاستعداد لأن أسامحها في الدين وأغفر لها إهاناتها، حقًّا إنها امرأة عجيبة.

٩

(سميرنوف، لوقا، بوبوفا)

بوبوفا: (تدخل وهي تحمل المسدسات) إليك المسدسات! تفضل أرني كيف تستعمل قبل أن نشرع في المبارزة.. إنني لم أقبض على مسدس طيلة حياتي.

لوقا: أنقذنا يا رب وارحمنا. عليّ أن أهرع في طلب النجدة من البستاني والسائس وغيرهما. رباه، من أين جاءنا هذا البلاء؟ (يخرج)

سميرنوف: (يقلب المسدسات) انظري.. هناك عدة أنواع للمسدسات منها ما هو خاص بالمبارزة، ويعرف باسم موتيميرا، أما هذه التي في حوزتك فهي من طراز سميث وفيسون، وتستعمل عادة للضرب

المُركَّز. حقًّا إنها لمسدسات جيدة، يباع الواحد منها اليوم بتسعين روبلا، أما طريقة استعمالها فتقبضين على المسدس هكذا (يلتفت جانباً) رباه ما هذه النظرات.. امرأة شعلة!

بوبوفا: أأقبض على المسدس على هذا الشكل؟

سميرنوف: أجل هكذا.. تصوبين الفوهة نحو الهدف، وتجعلين رأسك يميل إلى الخلف قليلا.. أجل هكذا، ثم تضغطين على هذا الزناد وينتهي الأمر. والأهم من ذلك كله ألا تحتدمي، وأطلقي بأعصاب هادئة، واحذري أن تضطرب يدك.

بوبوفا: شكراً، لكنني لا أستحسن المبارزة في الغرفة، فلنخرج إلى الحديقة.

سميرنوف: هيا، لكنني أحيطك علماً بأنني سأطلق النار في الهواء!

بوبوفا: وما معنى ذلك؟

سميرنوف: وأنت ما يعينك مما أفعل؟ هكذا أريد!

بوبوفا: أجبنت أيها الرعديد؟ هه.. آ.. آ.. آ.. كلا لن يكون لك ما تريد. تفضل واتبعني. وأقسم لك بكل عزيز بأنه لم يهدأ لي بال حتى أضرب بالرصاص جبهتك البغيضة هذه. أجبنت أيها الرعديد؟ قل لماذا عدلت عن المبارزة؟

سميرنوف: لأنني أعجبت بك!

بوبوفا: (تضحك بغيظ) لقد أعجبتك! إنه يجرؤ ويقول إنني أعجبته (تشير إلى الباب) اخرج!

سميرنوف: (يضع المسدس على المائدة دون أن يتفوه بكلمة. ثم يأخذ قبعته. ويسير نحو الباب ويقف، فيتبادلان النظر لحظة ثم يخاطبها): ألا تزالين ساخطة عليّ؟ إنني أيضاً مهتاج حانق ولكن هل لك أن تفهميني؟ فالمسألة هي كما ترين وبكلمة موجزة، هي (يصرخ) وما ذنبي إذا ما أعجبت بك؟ إنني معجب بك أتفهمين؟ إنني على وشك الوقوع في هواك.

بوبوفا: اغرب عن وجهي، وإلا أطلقت عليك النار.

سميرنوف: أطلقي النار عليّ، فإنك لا تدركين السعادة التي أجدها في الموت مشيعاً بهاتين العينين البرّاقتين العجيبتين، وأن أُقتل بمسدس تقبض عليه هذه اليد المخملية. لقد جنُنت.. ففكري في الأمر، وأصدري حكمك. إنني رجل شريف مؤدب، وأملك دخلا سنويًّا يقدر بعشرة آلاف روبل، وإنني صياد ماهر أُصيب قطعة النقود في الهواء بطلقة واحدة. عندي خيول ممتازة.. أفلا تريدين أن تكوني زوجة لي؟

بوبوفا: (حانقة تهز المسدس) هيا إلى المبارزة.. أسرع!

سميرنوف: لا أفقه شيئاً.. جنُنت.. أيها الخادم ايتني بقدح من الماء.

بوبوفا: (تصرخ) هيّا إلى المبارزة!

سميرنوف: جنُنت.. أحببت.. مثل الولد الصغير.. بل مثل الأحمق (يمكسها من يدها وهي تصرخ من شدة الألم) أُحبك.. (يجثو على ركبتيه)

أحبك أكثر من جميع اللائي أحببتهن في حياتي.. هجرت اثنتي عشرة امرأة، وتسع هجرنني، لكنني لم أحب أية واحدة منهن بقدر حبي لك. هاأنذا جاثم أمامك مثل الأحمق. أطلب يدك، فوا خجلاه! خمس سنوات انقضت لم أذق خلالها طعم الحب، فقد آليت على نفسي ألا أحب. وإذا بسهم الحب يصيبني في قلبي على حين غرَّة. إنني أطلب يدك؛ (يقف ويتجه بسرعة نحو الباب).

بوبوفا: قف!

سميرنوف: (يقف) نعم!

بوبوفا: لا شيء.. اذهب، ولكن قف! كلا.. اخرج اخرج! إنني أمقتك. ولكن كلا لا تخرج! إنني خائفة.. إنني ساخطة.. (تلقي المسدس على الطاولة) لقد ورمت أصابعي من هذه الآلة الكريهة (تمزق منديلها من الحنق) ألا تزال واقفاً؟ انصرف!

سميرنوف: الوداع؟

بوبوفا: أجل اخرج (تصرخ) إلى أين أنت ذاهب؟ قف؟ اذهب؟ رباه إنني حانقة ساخطة. لا تقترب مني لا تقترب.

سميرنوف: (يقترب منها) يا لعجبي من نفسي لقد أحببتك كما يحب تلميذ المدرسة الإعدادية، جثمت أمامك على ركبتي وشعرت بموجة من الصقيع تمزق جسدي. (بخشونة).

أحبك! إنني كنت في غنى عن هذا الحب ولم يخطر لي ببال قط،

وكيف أفكر في الحب، وعليّ غداً أن أدفع الفوائد للبنك الزراعي. وموسم الحصاد على الأبواب، وإذا بك تعترضين سبيلي، (يطوقها من خصرها) إنني لن أغتفر لك ذلك أبداً.

بوبوفا: ابتعد عني.. ارفع يدك عن خصري.. إنني أمقتك.. هيا إلى المبارزة!

(تقبيل متواصل)

١٠

(يدخل لوقا عليهما وهو يحمل فأساً، وبصحبته البستاني يحمل مسحلة، والسائس يحمل شوكة حصاد، وعددٌ من العمال يحملون قطعاً من الخشب)

لوقا: (يراهما متعانقين) رباه، يا أصحاب الكرامات!

(وقفة)

بوبوفا: (منخفضة العين) لوقا، قل لسائس الإسطبل أن لا يقدم اليوم شيئاً من الشوفان للحصان «توبي»!

(يسدل الستار)

مفجوع رغم أنفه

من حياة الاصطياف في الريف

أشخاص الرواية

إيفان إيفانوفيتش تواكاتشوف: رب عائلة.

ألكسي ألكسيفتش موراشكين: صديقه.

تجري حوادث الرواية في بطرسبورغ في بيت موراشكين. (مكتب موراشكين حسن الفرش، يجلس موراشكين وراء مكتبه، فيدخل عليه تولكاتشوف وهو يحمل بين يديه زجاجة مصباح، ودراجة أطفال، وثلاث علب تحتوي على قبعات، ورزمة كبيرة تتضمن ثوباً نسائيًّا، وكيساً فيه زجاجات خمر، ورزمة صغيرة أخرى، يتطلع بعينين تائهتين، ويرتمي على المقعد متهالكاً).

موراشكين: مرحى إيفان إيفانوفيتس.. إنني جد مغتبط برؤياك.. من أين أنت آت!

تولكاتشوف: (يتنفس بصعوبة) آه يا عزيزي لي رجاء لديك أتوسل إليك، أقرضني مسدسك حتى الغد! كن صديقاً صدوقاً وأقرضني إياه.

موراشكين: وما حاجتك بالمسدس؟

تولكاتشوف: إنني في مسيس الحاجة إليه.. أبتاه، أسعفني بقليل من الماء، أسرع بالماء، أجل لابد لي من الحصول على المسدس، لأنني سأسافر

هذه الليلة إلى المصيف، وأخترق الأحراج المخيفة بمفردي، وأرى أن أحمل مسدساً حذر الطوارىء.. أقرضني إياه.. أتوسل إليك.

موراشكين: كفاك هذراً يا إيفان إيفانوفيتش. ما هذا الخور؟ أنت رب عائلة، ومستشار دولة، فاخجل من نفسك.

تولكاتشوف: وأي رب عائلة أنا؟ إنني شهيد. بل بهيمة حقيرة إنني زنجي، عبد منحط، لا أزال أُمني النفس في هذه الحياة، ولا أفعل شيئاً لينقلني إلى دار البقاء. إنني خرقة بالية، سخيف أحمق، فما معنى عيشي هذا؟ ألا تقل لي لمَ أنا عائش؟ وما الذي يدعوني إلى تحمل كل هذه الآلام المعنوية والجسدية. إنه ليرضيني أن أكون شهيد فكرة ما، ولكنني لن أقبل –بأية صورة من الصور– أن أكون شهيد أثواب نسائية، وزجاج مصابيح! كلا لن أكون ذلك. كفاني.

موراشكين: لا تصرخ يسمعك الجيران.

تولكاتشوف: دعهم يسمعون، فالأمر عندي على حد سواء. فإذا لم تقرضني المسدس فغيرك يقرضني إياه.. لقد تقرر الأمر، ولن أبقى في عداد الأحياء بعد اليوم.

موراشكين: قفْ، لقد قطعت عروقي، تكلم بهدوءٍ، إنني ما زلت أَجهل الأمر الذي يؤلمك في حياتك.

تولكاتشوف: أتسألني الأمر الذي يؤلمني في حياتي؟ تفضل واسمع قصتي، سأعترف لك بحقيقة الأمر، ولعل في اعترافي هذا ما يخفف الحمل

عن نفسي، فلنجلس.. أصغِ، آه.. أماه، دعني أتنفس قليلا.. خذ على سبيل المثل ما حدث لي هذا اليوم: شرعت في عملي المضني في الديوان من الساعة العاشرة صباحاً حتى الرابعة بعد الظهر، وكان الجو حارًّا خانقاً، والذباب يشنها حرباً لا هوادة فيها، وكان الوضع غير طبيعي في الدائرة؛ فالسكرتير في إجازته، وخرابوف راح يتروح، وصغار الموظفين لا يفكرون إلا في الاصطياف الريفي، وفي الحب، والحفلات المسرحية، والأنكى من ذلك كله أن السكرتير بالنيابة مصاب بطرش في أذنه اليسرى، وعاشق.. وهكذا ترى كل شيء هاجعاً مشلولاً في الدائرة، في حين أن طلاب الحاجات يهرعون ويتسابقون، يهددون ويحتجون، فيحدثون بلبلة وتشويشاً عظيمين.. وكلهم بين مستفهم وصاحب مصلحة. وما أكاد أفرغ من هذا العمل الممل الذي يجري على وتيرة واحدة، ومَثَلهُ مَثلُ الإسفنجة تمتص الماء وتلفظه.. أجل ما أكاد أغادر الدائرة حتى تستولي عليَّ رغبة ملحة في أن أتناول الغداء، وأستلقي على الفراش، أطلب النوم الهنيء، ولكن أنّى لي ذلك؟ أتذكر ساعتئذ أنني رب عائلة مصطافة وما أنا إلا خلعها، بل عبدها وممسحتها.. أجل أيها العزيز موراشكين لقد انتشرت في مصيفنا عادة جديدة لطيفة، ومفادها أن المصطافات يشعرن بأن لهن من السلطة ما يخولهم الحق بأن يطلبن من الرجل المصطاف الذاهب إلى المدينة أن يجلب لهم معه كل ما هم في حاجة إليه من ملبس ومأكل ولوازم بيتية أخرى، وفي صبيحة هذا اليوم طلبت مني زوجتي أن أعرّج على الخياطة وأن أوبخها على إخراجها كمي الثوب عريضين، وجعلها كتفه ضيقاً، وسألتني أن أستبدل بحذاء ابنتنا سونتشكه غيره، وأن أشتري لكنّي شريطاً من الحرير، وثلاث

أذرع من القماش.. حلمك أيها الصديق الصدوق، سأقرأ لك القائمة مفصلا (يخرج من جيبه ورقة ويقرأ فيها): «زجاجة مصباح، أوقية طحال، مسامير وبراغي بخمسة كوبيكات، زيت خروع لميشا، عشر أواق سكر ناعم، وبودرة بعشرة كوبيكات، وعشرون زجاجة بيرة، ثَم عليّ أن أعرج على البيت وأن أجلب منه الطاس المعدني، وعلبة السكر وزجاجة حامض الكربونيك، وعلبة المسحوق الفارسي لمكافحة البق، وزجاجة روح الخل، وبالطو ميشا الخريفي، وكوسيه المدموازيل شانسو». هذه طلبات الزوجة والعائلة، أما طلبات المعارف والجيران –ليت إبليس يختطفهم– فهي أن أشتري دراجة لأسرة فلاسين بمناسبة عيد ميلاد تولوديا، وأن أدعو القابلة لتزور زوجة الرئيس العسكري فيخرين، وأن أسلم خمس رسائل لبعض الأسر في المدينة.

وعلى ذلك يا أبتاه، تراني في الفترة التي تتخلل انتهاء عملي في المكتب، وقيام القطر أركض من مكان لآخر وأنا ألعن الحياة. فمن الحانوت إلى الصيدلية، ومن الصيدلية إلى الخياطة، ومن هذه إلى اللحام، ومن هذا أعود ثانية إلى الصيدلية. ويحدث أحياناً أن تعثر قدمي في مكان، وأفقد نقودي في مكان آخر، وأنسى أن أدفع ثمن البضاعة في مكان ثالث، فيعدو ورائي صاحب البضاعة مثيراً ضجة فاضحة، وأدوس على رداء سيدة في مكان رابع.. أف.. إن هذه التمرينات المتوالية تجمد الدم في عروق الإنسان، وتشل أعصابه وتجعله يحس طيلة ليله أن هناك من يكسر عظامه، وأن تماسيح تراوده في أحلامه.

حسناً. لقد نفذت الطلبات والتوصيات، وابتعت كل شيء، فكيف لي بعدئذ أن أؤلف بين هذه الموسيقى المختلفة الألحان؟ كيف أضع مثلا العلبة المعدنية الثقيلة مع زجاجة الصمباح؟ أو حامض الكربونيك مع الشاي؟ أو زجاجات البيرة مع الدراجة؟ إنها أشغال شاقة فرعونية. ومن الواجب إنعام الفكر فيها، إنها معضلة شديدة التعقيد. فكيفما حاولتُ تدبر الأمر، والاحتيال عليه، فلا مفر من أن يتهشم شيء مما أحمله، أو ينساب من بين يدي إلى الأرض.. ثم أدخل عربة القطار فأرى فيه ازدحاماً عظيماً فأضطر إلى الوقوف مسنداً بعض الرزم إلى ذقني، ويتحرك القطار فيتماوج المسافرون ويميل بعضهم على بعض، وتتطاير حوائجي هنا وهناك.. ويرتفع صراخ المسافرين من كل الجهات قائلين: "لقد شغلت بحوائجك أماكن غيرك.. ارفعها وإلا استدعينا المفتش وسألناه أن ينزلك من القطار في أقرب محطة". فأداريهم، وأصبر على مضض، وأتسمر في مكاني مثل الحمار العنيد!

واسمع الآن يا صديقي الصدوق تتمة قصتي: وأخيراً أصل إلى المصيف وأحس بحاجة شديدة إلى الأكل ورغبة في شرب كأس من النبيذ، غير أن سوء الطالع يلازمني في المصيف أيضاً، فلا أكاد أبلغ البيت وأفرغ الحمل، وألعق القليل من الحساء، حتى تدخل عليّ زوجتي وتقول لي: "هيا إلى المسرح، أو إلى حلقة الرقص!" وهل بوسعي أن أحتج؟ فإنني زوج.. وكلمة «زوج» تعني بلغة أهل الاصطياف «بهيمة» معدة للركوب وحمل الأثقال، لا تجد من يشفق عليها حتى ولا جمعية الرفق بالحيوان!

فأسير مع زوجتي رهين أمرها، فنشاهد رواية «فضيحة في أسرة فاضلة»، أو رواية «مرتيو»، فأصفق بإشارة منها، ثم أعطس وأتثاءب. هذا إذا ذهبنا إلى المسرح. أما إذا ذهبنا إلى حلقة الرقص فعليّ هناك أن أبحث عن فرسان يراقصون زوجتي! وإذ نعود إلى البيت من المسرح أو حلقة الرقص بعد منتصف الليل، أشعر في قرارة نفسي بأنني جيفة لا تصلح إلا لتُلقى إلى السباع والطيور الجارحة. وعندما أبلغ ما أصبو إليه وهو الفراش أستلقي عليه، فتغمرني الغبطة وأغمض عيني وأنام، ويتراءى لي أن كل شيء يحيط بي عذاب لطيف شعري، فلا صوت أطفال يقلق راحتي ولا زوجة تزعجني. كل شيء هادئ دافئ.. وعلى حين غرة أسمع (دزز,, زز..) يا الله! البعوض «يثب». أجل، البعوض الشقي الكافر اللعين «يهدد بقبضتيه»، البعوض هو الإعدام الفرعوني! هو محاكم التفتيش الإسبانية! دززز. البعوض يدندن بصوت شاك محزن، كما لو أنه يقدم لك استرحاماً، وفجأة إذ بهذا اللئيم يلسعك فتقضي الساعات الطوال وأنت تحك جسمك.

ثم تنفث الدخان عليه، وتهشه، وتخفي رأسك تحت اللحاف دون جدوى، وفي النهاية تبصق وتستسلم للعذاب وتقول: «تغذوا أيها المناكيد!» ولا تكاد تعتاد لسع البعوض حتى يتناولك نوع آخر من المنغصات ألا وهو مدرس الغناء. هناك طبقة من المغنين ينامون نهاراً ويسرحون ليلا، فيجوبون بيوت محبي الغناء ويحيون فيها الحفلات أو يلقنون الدروس.. وزوجتي مغرمة بالغناء، ويأتيها أستاذها بين ليلة وأخرى،

فيرفع صوته، وتتبعه هي فيخطِّئها، فتعيد الصراخ، إنه لعذاب أشج من لسع البعوض.. ويل لذاك المغني حين ينشد: «لا تقولي إن عهد الصبا قد اندثر فهأنذا أقف أمامك ثانية مأخوذاً» يا له من مغن وغد.. ويا لها من تلميذة أنانية.. يواصلان الغناء فينتزعان مني الروح، ولا أجد وسيلة لتهدئة نفسي إلا أن أتسلى بالنقر على صدغي إلى أن يكف المغني عن الغناء في تمام الساعة الرابعة صباحاً، آه.. إليَّ بالماء يا صديقي الصدوق.. وبعد ذلك أنام ساعتين فقط فأنهض في الساعة السادسة صباحاً، وأسرع إلى المحطة مجتازاً الطريق الموحلة، والضباب يكتنفني من كل جانب، والصقيع يسري في جسمي، وأركب القطار وأبلغ المدينة، ثم تبتدئ الأغنية من أولها! إنها لحياة منحطة ساقطة، لا أريدها لألد أعدائي، إنني مريض، قصير النفس، مصاب بحرقة في صدري، ومعدتي لا تهضم الأكل، وعلى عيني غشاوة، وأحس دائماً بأنني أخشي شيئاً أجهله! ثق بأنني جننت. (يتطلع هنا وهناك) أرجو أن يظل هذا الخبر سرًّا فيما بيننا وسأذهب الآن إلى الطبيب تشتشيتوا أو مرجيفسكي ليفحصني. آه يا صديقي! لا يسعك أن تتصور حالتي في أويقات ضيق الصدر وتوتر الأعصاب، فإذا ما لسعني البعوض أو غنى المغني في بيتي بعد منتصف الليل، تظلم الدنيا في ناظري، وأثب فجأة، وأركض في جميع أرجاء البيت كمن اشتعلت في ثيابه النيران، وأصرخ قائلاً: «أتعطش للدماء.. للدماء»، وتمتلكني في هذه الآونة الرغبة في أن أطعن أحدً بخنجر، أو أن أهوي بكرسي على رأس أحدهم.. هذا هو ما أوصلتني إليه حياة الاصطياف.. ألا يوجد بين الناس من يمنحني شفقته أو عطفه لا ضحكه وسخريته؟

إنني مخلوق حي، أود العيش مثل باقي الناس. وقصتي هذه ليست أنشودة هزلية وإنما هي فجيعة محكمة الحلقات. أصغِ إليَّ الآن: إن أبيت أن تعطيني مسدسك فامنحني عطفك على الأقل!

موراشكين: إنني عليك لعاطف!

تولكاتشوف: هه.. لقد بينت لي عطفك هذا. الوداع، إنني ذاهب في طلب السمك، والنقانق، وبودرة الأسنان، وغير ذلك الشيء الكثير.. ثم.. إلى المحطة.

موراشكين: أين يقع منزلك في مصيفك؟

تولكاتشوف: بالقرب من نهير الرمة.

موراشكين: (مغتبطاً) أحقًّا تقول؟ ألا تعرف هناك أين تسكن المصطافة السيدة أولغا بافلوفنا فينبرغ؟

تولكاتشوف: كيف لا أعرف؟ إنها جارتنا ومن معارفنا.

موراشكين: أحقًّا ما تقول؟ يا لها من مصادفة حسنة.

تولكاتشوف: عسى أن يكون الأمر خيراً.

موراشكين: أي عزيزي وحبيبي.. ألا تود أن تقدم لصديقك خدمة صغيرة، كن عند حسن ظني بك، وأعطني كلمة شرف أنك ستنفذ لي رجائي.

تولكاتشوف: خيراً! ماذا هناك؟

موراشكين: أتوسل إليك أيها الصديق الصدوق أن تبلغ السيد أولغا بافلوفنا تحياتي، وأن تخبرها أنني حيّ معافى، وأن تقبل يدها نيابة عني، ثم أرجوك أن تأخذ لها هذا الشيء الصغير بيدك.. لقد سألتني أن أشتري لها ماكينة خياطة تدار باليد، فاشتريتها غير أنني محتار في كيفية إرسالها لها، خذها معك يا عزيزي.. أرجوك، ثم أتوسل إليك بهذه المناسبة أن تحمل لها أيضاً هدية مني، وهي عبارة عن قفص فيه شحرور، واحذر أن ينكسر باب القفص ويفلت الطير، ما لك تحدق فيّ هكذا؟

تولكاتشوف: ماكينة خياطة تدار باليد؟ وقفص فيه شحرور؟

موراشكين: إيفان إيفانتش ماذا دهاك؟ وما الداعي لقتمان وجهك؟

تولكاتشوف: (يخبط الأرض بقدميه) ايتني بالماكينة! أين القفص!؟ واجلس أنت عليهما أيضاً.. افترسني، قطعني (يهدد بقبضتيه) أتعطيش للدماء.. للدماء.. للدماء!

موراشكين: أجننت؟

تولكاتشوف: (يهجم عليه) أتعطش للدماء.. للدماء!

موراشكين: (في هلع) لقد جنّ (يصرخ) بتروشكا.. ماريا.. أين أنتما؟ النجدة يا ناس.. أنقذوني!

تولكاتشوف: (يعدو في أثر موراشكين في الغرفة) أتعطش للدماء.. للدماء؟

(يسدل الستار)

ضرر التبغ

الممثل الوحيد– إيفان إيفانوفيتش نيوخين: زوج امرأة تدير مدرسة للموسيقى وتشرف على بانسيون للفتيات.

نيوخين (وقد أرخى شعر خديه، وحلق شاربيه وذقنه، وارتدى فراكاً قديماً، يدخل المسرح بخيلاء، فينحني أمام الجمهور ويعدل صديريته ويقول): سيداتي الفاضلات.. ولدرجة ما سادتي الأفاضل، (يمشط شعر خده) لقد طلب من زوجتي أن ألقي في هذا الحفل محاضرة توجيهية، فلم يسعني إلا أن ألبي الطلب! وإليكم المحاضرة ما دام لابد منها، فالأمر عندي على حدٍّ سواء. إنني لست في الواقع أستاذاً بل بعيد كل البعد عن مستوى العلماء، ومهما يكن من أمر فلقد انقضت ثلاثون سنة من حياتي لم أنقطع خلالها عن العمل في معالجة مسائل لها من الخصائص العملية ما لها.. فكنت أنطوي على نفسي أفكر، وأكتب أحياناً المقالات العلمية، إنها ليست علمية دقيقة، وإنما هي شبيهة بالعلمية.

والشيء بالشيء يذكر، فلقد وضعت في الأيام الأخيرة مقالة كبيرة عنوانها: «حول ضرر بعض الحشرات» وقد أثارت هذه المحاضرة إعجاب بناتي، وخاصة ذلك الموضع منها الذي تناولت فيه البق وطرق مكافحته. وبعد أن ألقيت تلك المحاضرة مزقتها، ولكن ثقوا أنني مهما كتبت في مكافحة البق فلابد من استعمال المسحوق الفارسي، ولا أخفي عليكم أن البق تسرب إلى بيانو بيتنا. أما موضوع محاضرتي لهذا اليوم فهو الأضرار التي تلحق بالإنسانية من جراء استعمال التبغ.

إنني من المدخنين، إلا إن زوجتي أرادت أن ألقي عليكم اليوم محاضرة عن ضرر التبغ. إذن لا مفر من ذلك.

فهاكم حديث التبغ ما دام ذلك الحديث هو المطلوب، فالأمر عندي على حد سواء وإنني لأقترح عليكم، أيها السادة الأفاضل، أن تعيروا محاضرتي هذه، كيفما كانت، ما تستحقه من اهتمام. وألفت نظركم إلى أنه إذا كان بينكم من تخيفه المحاضرات العلمية الجافة، أو لا تعجبه بتاتاً فباستطاعته ألا يستمع إليها وينصرف (يعدل صديرته).

وأرجو من حضرات الأطباء الحاضرين، بصورة خاصة، أن ينتبهوا إلى محاضرتي هذه، إذ بوسع الكثير منهم أن يستمد منها الشيء الوافر من المعلومات المفيدة. فالتبغ –عدا فعاليته المضرة– يستعمل أيضاً في الطب. أضرب لكم مثلا على ذلك: إذا أخذنا ذبابة ووضعناها في علبة الدخان، فما من ريب في أن مصيرها الموت المتسبب عن تمزيق جهازها العصبي!

فالتبغ هو أولا نبات. من عادتي سيداتي وسادتي أن أغمز بعيني اليمنى وأنا أحاضر، فرجائي إليكم ألا تكترثوا لذلك.. إذ أنني على الجملة عصبي المزاج، وقد أخذت عيني بالغمز منذ الثالث عشر من أيلول سنة ١٨٨٩، أي في ذلك اليوم الذي وضعت فيه زوجتي ابنتنا الرابعة فارفارا. وبناتي كلهن ولدن في الثالث عشر من أشهر السنة. عفواً (ينظر إلى الساعة) آمل ألا أكون قد انحرفت عن الموضوع. فالوقت ضيق، لكن عليَّ أن أقول لكم إن زوجتي تدير مدرسة للموسيقى، وتشرف على بنسيون خاص، فهو ليس بنسيوناً على الوجه الأكمل وإنما هو شبيه بذلك.

ولا أذيع عليكم سرًّا إن قلت لكم إن زوجتي تشكو دائماً من النقص في المال، مع أنها تملك ما يفيض عن حاجتها، تملك أربعين أو خمسين ألفًا من الروبلات، في حين أنني لا أملك كوبيكًا واحدًا.. آه.. ما عساي أن أقول لكم؟ إنني أعمل في البانسيون بمثابة مدير للإدارة؛ فأشتري المواد الغذائية، وأحاسب الخدم، وأقيد النفقات، وأخيط الدفاتر، وأكافح البق، أنزه كلب زوجتي، وأتصيد الفئران. وقد طلبت مني زوجتي في الليلة البارحة أن أقدم للطاهية الدقيق والزيت لتصنع الفطائر للتلميذات، ولما أعدت الطاهية الفطائر، هرعت زوجتي إلى المطبخ لتعلن أن ثلاث تلميذات لا يردن أكل الفطائر لأن غددهن متورمة. وهكذا اتضح لنا أننا أعددنا كمية من الفطائر أكثر من المطلوب، فما العمل؟ لقد طلبت زوجتي في أول الأمر أن نحتفظ بهذه الفطائر في السرداب، ثم فكرت مليًا وقالت لي: "كل أنت هذه الفطائر أيها المغفل"، ومن عادة زوجتي أن تدعوني وهي مضطربة النفس "بالمغفل أو الأفعي أو الشيطان". وزوجتي دائمًا مضطربة النفس.

وخلاصة القول: أخذت منها الفطائر وبلعتها بلعًا لشدة جوعي.

وبالأمس مثلاً حرمتني زوجتي الغداء قائلة: "ليس من داع لإطعامك أيها المغفل"، ولكن المعذرة، سيداتي وسادتي، (ينظر إلى الساعة) يبدو لي أنني ثرثرت وانحرفت عن الموضوع، فلأتابع المحاضرة.

حقًا إنكم تفضلون الاستماع إلى رواية حب، أو قطعة موسيقية، أو أغنية عذبة (يغني أغنية مطلعها): "إننا لا نطرف بصرنا في عجاج الوغى!"،

لا أذكر اسم مؤلف هذه الأغنية. وبالمناسبة أحيطكم علمًا بأن زوجتي ألقت على عاتقي في مدرستها الموسيقية مهام أخَر بالإضافة إلى الإدارة؛ فأنا أدرس الحساب والطبيعيات والكيمياء والجغرافيا والتاريخ والآداب وغيرها.

وتتقاضى زوجتي أجرًا خاصًا على الرقص والغناء والرسم، في حين أنني أتولى بنفسي تدريس التلميذات تلك الدروس. أما مدرستنا الموسيقية هذه، فتقع في زقاق الكلاب الخمسة، في البيت رقم ١٣، ويخيل إلي أن السبب في فشلي في حياتي هو لأنني أسكن في بيت رقمه ١٣، ولأن بناتي ولدن في اليوم الثالث عشر من أشهر السنة، ولأن بيتي يحتوي على ١٣ نافذة. ما عساي أن أقول لكم؟ بإمكان كل شخص منكم يريد مفاوضة زوجتي بصدد إدخال بناته في المدرسة أن يزورها في بيتها في أي وقت يحلو له، أما برنامج المدرسة، فيباع عند البواب بثلاثين كوبيكًا (يخرج من جيبه بعض النسخ من ذلك البرنامج) أتريدون أن نتقاسم هذه النسخ؟ إن ثمن النسخة الواحدة ثلاثون كوبيكًا فمن يرغب في الشراء؟ (سكون) ألا من راغب بينكم؟ لا بأس أبيعكم النسخة بعشرين كوبيكًا (سكون) حقًا إنه لشيء محزن.. أجل إن بيتي رقمه ١٣، لا أفلح في شيء، لقد هرمت، وسخفت. فهأنذا أقف أمامكم محاضرًا، ويبدو لكم أنني مرح؛ والواقع أنني أود من صميم قلبي أن أصرخ بكل ما أوتيت من قوة، أود أن أطير إلى أقصى أطراف المعمورة.. آه، ليس هناك من أبثه شكواي أذرف الدمع أمامه، تقولون لي: وأين بناتك؟ فمن هن بناتي هؤلاء؟ إنني أحدثهن وهن

يقهقهن.. ولزوجتي من البنات سبع.. كلا، آسف أظن أنهن ست (على عجل) كلا، هن سبع.. كبراهن أنا وتبلغ من العمر ٢٧ سنة. أما صغراهن فيبلغ عمرها سبع عشرة سنة.

سيداتي وسادتي (يتطلع يمنة ويسرة) إنني تعس، لقد انقلبت رجلا أحمق، وتحولت إلى شيء تافه، أتراءى لكم كما لو كنت أسعد الآباء، ولكن هل أجرؤ على الظهور بغير هذا المظهر؟ تصوروا أنني قضيت ثلاثًا وثلاثين سنة مع زوجتي، ولقد كانت هذه الحقبة من الزمن أفضل سني حياتي.. أي لست أفضلها على الوجه التام؛ ولكنها تعاقبت مثل لمح البصر، فياليت الشيطان اختطف تلك السنين قبل أن تراني وأراها.. (يتطلع يمنة ويسرة) يظهر أن زوجتي لم تأت بعد، وما دامت هي غائبة فسأحدثكم بكل شيء عنها. إنني أخشاها جدًا. أخشاها عندما تتطلع في وجهي بعينيها الملتهبتين. أما بناتي فلن يتزوجن لأنهن محتجبات في البيت ولا يحتككن بالرجال، يضاف إلى ذلك أن زوجتي لا تقيم الحفلات والسهرات في بيتها. إنها امرأة بخيلة، سريعة الغضب، سليطة اللسان، وهذا ما ينفر منها الناس. غير أنني أطلعكم على سر (يقترب من كوة الملقن) باستطاعة كل امرئ أن يرى بنات زوجتي في الأعياد الكبرى عند عمتهن نتاليا سميونوفنا؛ وهي امرأة تعاني آلام الروماتزم وترتدي رداء أصفر نثرت عليه بقع سوداء وكأنها الصراصير! ونتاليا هذه امرأة كريمة لا تبخل عليَّ إذا كانت زوجتي غائبة بالقليل من الخمر (ينقف رقبته بإصبعه الوسطى)[*]

([*]) إذا أراد الروسى أن يشرب الخمر عمد إلى النقف على رقبته بإصبعه الوسطى.

وأحيطكم علمًا بأنني أسكر من كأس واحدة، وأشعر براحة في النفس يلازمها في الوقت نفسه حزن أعجز عن وصفه.

لا أدري ما الذي يدعونني لتذكر سني شبابي، وما الذي يحثني على الهرب! آه لو تعلمون (بصوت عال) كم أتعشق الهرب. أود أن ألقي بكل شيء وأهرب دون أن أتطلع إلى الوراء. فإلى أين المفر؟ لا فرق عندي بين مكان ومكان، فالمهم هو أن أفر من هذه الحياة الرخيصة، القذرة، المنحطة، هذه الحياة التي حولتني إلى رجل أحمق حقير، إلى هرم أبله يستحق الرثاء. أريد هجران هذه الزوجة الشريرة الحقود، التي أذاقتني مر العذاب خلال ثلاث وثلاثين سنة. أريد الفرار من دروس الموسيقى والمطبخ، ومن دراهم زوجتي، وغيرها من صغائر الأمور. أريد أن يستقر بي المقام في مكان ناءٍ في الخلاء البعيد؛ فأنقلب هناك شجرة أو عمودًا أو ألعوبة حقل. وأقبع تحت السماء الواسعة، وهناك أنسى.. أنسى كل شيء.

المعذرة سيداتي وسادتي.. أود ألا أذكر شيئًا عن ماضيّ، أود أن أنزع عني هذا الفراك القديم القذر الذي لازمني منذ ثلاثين سنة خلت (ينزع عنه الفراك) إليك عني أيها الفراك! (يدوسه بقدميه) إليك عني.. إنني رجل مسن فقير حقير أكل على الدهر وشرب مثل هذه الصديرة (يعرض ظهره للجمهور).. لا أريد شيئًا بتاتًا إنني أسمى وأشرف من أي طلب كان. لقد كنت يومًا فتى ذكيًا، تلقيت علومي في الجامعة؛ فراودتني أحلام جمة وراودتها واعتبرت نفسي شخصًا مستكملا شروط الرجولة. وأما الآن فلا أريد شيئًا سوى الهدوء والراحة (ينظر يمنة ويسرة ويرتدي الفراك).

سيداتي وسادتي..

إنني لأرى زوجتي بين الستائر، فهي تنتظرني هناك (ينظر إلى الساعة) لقد انقضى الوقت فرجائي إليكم إذا سألتكم عن المحاضرة أن تقولوا لها إنها كانت موفقة.. وإن المغفل كان خطيبًا مفوهًا (ينظر يمنة ويسرة ويسعل) إنها تتطلع إلى ناحيتي (يرفع صوته) أجل، ولما كان التبغ يتضمن ذلك السم المريع الذي حدثتكم عنه الآن، فإنني لا أنصح أحدًا بالتدخين؛ وأمني نفسي بأن محاضرتي هذه (حول ضرر التبغ) ستأتي بالفائدة المرجوة.. لقد قلت كل شيء. (ينحني ويخرج بخيلاء).

(يسدل الستار)

القصص

١– رسالة إلى جار عالم. ٢– تريد النوم. ٣– من مذكرات حالم.

٤– صبي شرير. ٥– فانكا. ٦– في الحمام.

رسالة إلى جار عالم

جاري العزيز مكسيم.. جُد عليَّ بالمعذرة لنسياني بقية اسمك، ولا تؤاخذني، أنا الهرم العتيق والمخلوق الغبي، لجرأتي على إزعاجك بهذا الكتاب الذي ينطوي على الثرثرة، والسخف.

مضت سنة كاملة على تفضلك بسكنى هذا الجزء من العالم، مجاورًا لي –أنا الذبابة الحقيرة– لكنني لم أتعرف إليك طوال تلك السنة، كما أنك ما زلت تجهلني تمامًا، فهل تأذن لي الآن، أيها الجار العزيز، بأن أتعرف إليك، بواسطة هذه الرسالة، وأن أصافح يدك العاملة! وأرحب بمقدمك من بطرسبورغ، إلى منطقتنا الريفية هذه، التي لا تليق بمقامك.

لا أذيع سرًا، إن قلت لك: إنني كنت دائم التفكير، في كيفية الوصول إليك، لأن العلوم هي أمنا المبجلة، وهي والمدنية صنوان، وهذا ما دعاني لأن أحترم ذلك الرهط من الناس، الذين ذاع صيتهم، وأحيطوا بهالات المجد، وأكاليل الغار، وتحلوا بالأوسمة والأوشحة، وراحت أسماؤهم تدوي كالرعد في جميع أرجاء العالم المرئي، وغير المرئي.

إنني أحب الفلكيين والشعراء والكتاب والطبيعيين والكيماويين

وغيرهم من كهنة العلم الذين تعتبر نفسك أحدهم، بفضل ما قدمته من براهين واقعية وما توصلت إليه من نتائج وثمرات، وما وضعته من مصنفات ومؤلفات إبان جلوسك بين أدواتك وموازينك وكتبك الأجنبية المحلاة بالصور المغرية.

لقد زارني مؤخرًا في أملاكي، أو في أنقاضي وخرائبي، جاري السيد جيراسيموف، ولما تناولنا الحديث عنك، هاجم آراءك بصدد منشأ البشر، وغير ذلك من مظاهر العالم المرئي، وثار على جوك الفكري النير، وعلى أفقك الذهني الرائق، إلا إنني لم أوافقه على اعتراضاته، لأنني أحيا بالعلم وأتغذى بلبانه، ذلك العلم الذي هيأته العناية الإلهية للجنس البشري، ليتمكن بمعونته من استخراج المعادن واللآلئ من بطون الأرض.

ومع ذلك فالمعذرة يا جاري العزيز إذا أقدمت –أنا الحشرة التي لا تكاد تراها العين– ودحضت بعض آرائك.

أفادني جيراسيموف، أنك وضعت كتابًا عرضت فيه مسائل على درجة عظيمة من الأهمية، تدور كلها حول كيان الإنسان الفطري الذي عاش قبل الطوفان. لقد تكرمت وذكرت في كتابك هذا أن الإنسان تحدر من فصائل المارموزيت، والأورانغ أوتانغ، وهلم جرًا. فهل لك أن تعذرني إن خالفتك في هذه النقطة الهامة، وأدليت لك بحجج توقفك عند حدك؟

اعلم أننا –نحن بني الإنسان– سادة الكون، وأنبه جميع الأحياء التي تدب على الأرض، فلو كان مردنا إلى القردة الجاهلة البلهاء، لكان لنا أذناب، وأصوات وحشية، ولكان النور يطوفون بنا في المدن والقرى،

فيتلهى بعضنا برؤية بعض ونحن نرقص، أو نجلس القرفصاء في أقفاصنا الحديدية!

قل لي يا جاري العزيز: هل تكتسي أجسامنا بشعر القردة؟

أوَلا نتدثر بملابس حرم منها ذلك الحيوان؟ ثم .. هل كان بمقدورنا أن نحب المرأة لو فاحت منها روائح كالتي تفوح في حديقة الحيوانات؟ فلو كان أسلافنا قد تحدروا من القردة، فهل من المعقول أن يدفنوا في مقابر مسيحية؟ إن جدي الأكبر أمفروسي الذي عاش في أيام السيادة البولونية، دفن إلى جانب الراهب الكاثوليكي واكيم شوستاك، ولم يدفن بوصفه قردًا!

أستمحيك العذر، لأنني تدخلت في شئونك العلمية، وفرضت عليك آرائي الهمجية الخرقاء، هذه الآراء، التي إذا اطلع عليها العلماء والمثقفون، فسرعان ما تدخل إلى معدهم قبل رؤوسهم! ولكن ما عساي أن أعمل، وأنا لا أقدر على الصمت إذا ما رأيت العلماء لا يفكرون كما ينبغي عليهم أن يفكروا.

وأحاطني جيراسيموف علمًا، بأن لك نظرية خاطئة بصدد القمر أيضًا. آمل ألا تهزأ مني –أنا الرجل الهرم– إذا ما لمست سخفًا فيما أكتبه لك.

أجل! تفترض أنت أن القمر تسكنه قبائل بشرية تنتشر في جميع أنحائه، لكنني أجرؤ وأدحض افتراضك هذا بقولي: لو أن القمر مأهول،

لسترت بيوته، ومزارعه عنا نوره الساحر الأخاذ! ولانقطعت عنا الأمطار، وآل مصيرنا إلى الهلاك، لأن المطر يسقط من علٍ على الأرض، وليس على العكس، ولوقع سكانه على الكرة الأرضية، وهذا أمر لم يحدث قط. ثم ألا يغمرنا القمر بأقذاره لو كان مسكونًا؟ وهل يتمكن ساكنوه من البقاء على سطحه إن أحسوا وجوده ليلا فقط وافتقدوه نهارًا؟ ثم هل تسمح حكومات الأرض للناس بسكنى القمر، ولا تخشى من أن يصبح مأوى للعصاة والمجرمين؟

وقال لي جيراسيموف أيضًا: إنك ذكرت في مؤلفك الثمين أن في الشمس، وهي أعظم كوكب منير، كلفًا أو بقعًا سوداء، غير أنني أنفي ذلك نفيًا قاطعًا. وأسألك، كيف تمكنت من رؤية تلك البقع وأنت عاجز عن التطلع إلى قرص الشمس؟ ثم ما الفائدة من تلك البقع؟ ومن أية مادة مائعة تتكون؟ أوَلا تجففها حرارة الشمس؟! يخيل لي أنك تعتقد أيضًا بوجود أسماك تسبح في تلك البقع! سامحك الله.

أي جاري العزيز. هل لك أن تعذرني –أنا الغبي– لأنني حاولت تحديد بعض المسائل العلمية بمثل هذه الترهات؟ ألا اغفر لي مواقفي هذه، وتأكد بأنني قد كرست حياتي لخدمة العلم، فغدت أجنحته بمثابة ستار يقوم ما بين عيني، ونزوات المال.

إن كل اكتشاف يكتشفه العلماء، يسبب لي آلامًا كالآلام الناتجة عن وخز المسمار في الظهر! وبالرغم من جهالتي –أنا الملاك القديم– فإنني أتابع أعمالي في حقلي العلوم والكشف، وأصنعها بيدي! وأملأ رأسي

التافه، وجمجمتي المتوحشة، بمجموعة من الأفكار الهامة، والآراء العظيمة.

إن أمنا (الطبيعة) هي سفر جليل علينا أن نطالعه ونشاهده! أخبرك أنني توصلت إلى اكتشافات عديدة بمجهودي الخاص، اكتشافات لم يسبقني إليها أحد. وأقول، غير متبجح، إنني حصلت على معارفي بجهدي وعرق جبيني، لا بثروة والدي، فثروة الآباء كثيرًا ما تقضي على الأبناء بما توفره لهم من جاه عريض، ومساكن ذات ستة طوابق، وخدم، وأجراس كهربائية. فهناك ما اكتشفه عقلي الرخيص:

اكتشفت أن شمسنا الكبيرة –المتدثرة بثوب من الأشعة النارية– تطلع على الكون في أحد الأصباح، ومرة في السنة فقط، بمجموعة نفيسة من الألوان المتناسقة، فتخلع عليه بريقًا عجيبًا، يأخذ بمجامع القلوب. ثم توصلت إلى اكتشاف آخر: يتساءل الإنسان كثيرًا عن سبب قصر النهار في فصل الشتاء، وطول الليل فيه، في حين تنعكس الآية في فصل الصيف.

فتفسير ذلك أن النهار يقصر شتاء لأنه يتقلص من البرد، مثل كل الأشياء المرئية، وأن الليل يطول، لأنه يتمدد بفعل نيران المواقد، ومصابيح البيوت والشوارع!

واكتشفت أيضًا أن الكلاب في فصل الربيع تأكل النباتات مثل الخراف، وأن القهوة تؤذي أصحاب الأمزجة الدموية من الناس، فهي تحدث في رؤوسهم دوارًا، وفي عيونهم غبشًا.

وتوصلت إلى اكتشاف أشياء كثيرة أخر، مع أنني لا أحوز شهادات ثانوية أو جامعية.

تعال إلى بيتي –يا جاري العزيز– فعسى أن نكشف شيئًا معًا، وندرس الآداب معًا، وأتلقى عليك دروسًا شتى في الرياضيات.

قرأت منذ أمد غير بعيد أن أحد العلماء الفرنسيين وجد أن هيئة الأسد لا تشبه أبدًا ملامح الإنسان! وهذه نظرية لها خطورتها، أترك التحدث عنها إلى أن نلتقي في القريب العاجل. فتكرم واحضر إلى بيتي، ولك أن تحضر غدًا مثلا. حقًا إننا الآن صائمون، ممتنعون عن أكل اللحوم، لكننا سنهيئ لك على كل حال أكلا متواضعًا، وأعلمك أن ابنتي نتاشينكا ترجوك أن تجلب لها معك بعض الكتب العميقة الأفكار، فهي فتاة متحررة تعتقد أنها تنفرد في العقل والإدراك، وأن كل ما حولها من الناس ليسوا إلا جهلة أغبياء.

سيزورني بعد أسبوع أخي إيفان، فهو رجل طيب القلب، لكنه ملكي النزعة، ولا يميل إلى العلوم.

وسيحمل رسالتي هذه إليك خادمي تروفيم، وسيسلمك إياها في تمام الساعة الثامنة مساء، فإن جاءك متأخرًا، فاعلم أنه عرج على خمارة، واصفعه على وجهه صفعة أستاذ قدير!

لست أنا أول من يبتكر عادة التزاور بين الجيران، ولا آخرهم، ولذا، ألح عليك لتزورني فاحضر، واجلب معك كتبك وأدواتك، لقد كان بودي

أن آتي بنفسي إليك، لكنني جد خجول، وتنقصني الجرأة الأدبية.

أخشى أن أكون –أنا الرجل الرجس– قد أزعجتك برسالتي هذه، فمعذرة.

وتفضل بقبول احترامات جاويش الفيلق القوازقي المتقاعد، والمتحدر من صلب الأشراف".

جارك

واسيلي سيمي بولاتوف

تريد النوم

كان الوقت ليلاً..

وكانت الخادمة فاركا، وهي فتاة في الثالثة عشرة من عمرها، تهز سرير طفل مولاها، وتغني له أغنية بصوت خافت أشبه بالهدير، تقول في مطلعها:

"أهدهدك أيها الطفل وأغني لك أغنية جميلة".

وكان في إحدى زوايا الغرفة أيقونة، علق فوقها قنديل أخضر ترك زجاجه ظلا داكنًا على السقف، وامتد في الغرفة أيضًا حبل نشرت عليه لفائف الطفل وسروال أسود كبير. وقد خلعت هذه الأشياء على الموقد وسرير الطفل والفتاة معًا ظلا طويلاً، وكان كلما اهتز القنديل اهتز معه

ظله على السقف، وتحرك ظل اللفائف والسروال. وكان الهواء في الغرفة محتبسًا، فانبعثت منها رائحة الحساء ممتزجة برائحة مصنوعات من الجلود.

طال الوقت على الطفل وهو يبكي ويصرخ حتى بح صوته وخارت قواه. أما فاركا فعبثًا كانت تحاول النوم، لقد أغمضت عينيها، وتدلى رأسها على صدرها، وخيل إليها أن وجهها قد جف وتحجر، وأن رأسها صغر حتى غدًا حجمه كحجم رأس الدبوس، ومع ذلك كانت تغني بصوت خافت هو أشبه بالهدير:

"أهدهدك أيها الطفل وأغني لك أغنية جميلة".

وكان للأصوات الصادرة عن صراخ الطفل وصرير سريره، وهدير فاركا، وشخير رب البيت، وصفير الجدجد في جدران الموقد، أن تآلفت مع بعضها البعض فغدت تشبه الموسيقى الليلية المهدهدة، التي يحلو للمرء الاستماع إليها وهو مستلق على فراشه، غير أن هذا اللون من الموسيقى إنما يثير الأعصاب، ويضغط على النفس، ويطرد النعاس، ويقهر النوم.

كان القنديل يهتز، وكان ظله وظل اللفائف والسروال يترجرجان ويندسان في عيني فاركا الجامدتين شبه المغمضتين، فينعكسان في رأسها المثقل بالنعاس على شكل أحلام يكتنفها الغموض من كل جانب.

تراءت لفاركا غمائم سوداء، تطارد الواحدة الأخرى في كبد السماء، وتصرخ كما يصرخ الأطفال، ثم ما عتمت الريح أن هبت، فاختفت الغمائم فجأة. وظهرت للفتاة طريق مغطاة بطبقة من الأوحال الكثيفة،

ازدحمت فيها عربات النقل، وتدافع الناس بالمناكب وهم يحملون أمتعتهم على ظهورهم، وكانت هناك أشباح تتقدم القوم، أو تسير خلفهم، وترامت على جانبي الطريق أحراج التفت برداء من الضباب الرطب، ثم ظهر للفتاة أن هؤلاء الناس والأشباح يسقطون على الأوحال دفعة واحدة فتتقدم هي نحوهم وتسألهم: ما السبب في ذلك؟ فيجيبونها: نريد النوم! نريد النوم! ويستغرقون في نوم عذب، على حين تقف الغربان والعقاعق، على أسلاك البرق وتحدث صراخًا أشبه بصراخ الأطفال وهدفها من ذلك إيقاظ النيام!

وتهدر فاركا وهي في حالة من اللاوعي:

"أهدهدك أيها الطفل وأغني لك أغنية جميلة".

ثم تراءى لها أنها في كوخ يسوده ظلام حالك احتبس فيه الهواء، وبلغ مسمعيها صوت والدها المتوفي "أفيم ستيبانوف" وهو يتلوى على فراش المرض، وقد حانت ساعته، إنه لا يقوى على النطق بكلمة واحدة لكنه كان يستنشق الهواء، ويخرجه من بين أسنانه مجزءًا آ..آ..آ.. وتراءت لها أمها "بيلاجيا" وقد هرعت إلى بيت من كانت تخدم عندهم لتخبرهم أن أفيم يلفظ النفس الأخير، فطال أمد غيابها، وآن لها أن تعود، ثم ها هي ذي تسمع وقع أقدام.. إنه طبيب كان في ضيافة مولى أمها، فلما جاءته مستنجدة أرسله برفقتها ليعود أفيم.

وتراءى لفاركا أن الطبيب يدخل الكوخ دون أن ترى له وجهًا في الظلام، ثم سمعته يسعل ويقول: أوقدوا النار!

فأجابه المريض: آ..آ..آ..

وأسرعت بيلاجيا إلى الموقد وراحت تتلمس علبة الثقاب، ولما لم تعثر عليها أخرج الطبيب علبة من جيبه أشعل عودًا منها.

وهنا، سمعت الفتاة أمها تقول لأفيم: صبرًا يا شيخي صبرًا! وخرجت من الكوخ وبعد برهة وجيزة عادت وبيدها شمعة أضاءت أرجاء الكوخ، فظهر أفيم مسجى على الأرض، ولخديه لون مثل لون الزهر، ولعينيه بريق خاطف، ونظرة حادة.

قال الطبيب مخاطبًا أفيم: ما الذي دهاك؟ تشجع! وانحنى عليه؛ وما إن تفرس في وجهه حتى قال: أمن زمن طويل وأنت تعاني هذا المرض؟

فأجابه أفيم هامسًا: وما الذي تراه يا سيدي؟ هل حانت ساعة مفارقتي لعالم الأحياء؟

قال: طب نفسًا يا أفيم، سنعمل على شفائك بإذن الله.

– شكرًا لك يا سيد، ولكن ما الفائدة من العلاج إذا ما حل ملك الموت؟

فحص الطبيب المريض لمدة ربع ساعة، ثم نهض وقال: لابد من نقله إلى المستشفى على عجل. إن علته تتطلب إجراء عملية جراحية، هيا إلى مستشفى المدينة.

قالت بيلاجيا: أيها الطبيب إننا لا نملك وسيلة لنقله.

قال: لا بأس عليك سأتصل الآن بمولاك وأسأله أن يتكرم بنقل زوجك على عربته.

وتراءى للفتاة أن الطبيب يخرج من الكوخ، وتنطفئ الشمعة، وتسمع صوت أبيها مرة ثانية يقول مرتعشًا: آ..آ..آ..

ثم تأتي العربة، ويدخل جماعة إلى الكوخ، ويلفون المريض بالأحزمة ويرحلون به.

ويسفر الليل عن صباح رائق، وتذهب بيلاجيا مبكرة إلى المستشفى لتعرف ما حل بزوجها، ويخيل إلى الفتاة أن طفلا في مكان ما يبكي، وأن هناك من يغني له بصوتها ويقول:

"أهدهدك أيها الطفل وأغني لك أغنية جميلة".

ثم ها هي ذي أمها تعود، وترسم إشارة الصليب على صدرها، وتتحدث بصوت خافت، أخذوه ليلا، وعند الصباح توفاه الله فانتقلت روحه إلى الملكوت السماوي.. حيث الراحة الأبدية.

ويتراءى للفتاة أنها تركت الكوخ، وذهبت إلى الغابة المجاورة تبكي أباها، وإنها لكذلك إذ بها تفاجأ بضربة شديدة على ظهرها، طوحت بها على شجرة الصنوبر، ولما تطلعت إلى الوراء مذعورة وجدت نفسها أمام مولاها صانع الأحذية يقول لها: خسئت أيتها اللعينة. تنامين والطفل يبكي الساعات الطوال؟

وقرص أذنها.. فاهتز رأسها، واهتز السرير.

وغنت أغنيتها، ورقص ظل القنديل الأخضر على السقف، وترجرج ظل السروال واللفائف، وعاد إلى مخيلتها منظر الطريق المغطاة بطبقة من الأوحال الكثيفة، والناس الذين يحملون أمتعتهم على ظهورهم وهم يتدافعون، والأشباح التي تفترش الأرض وهي تغط في سبات عميق.

شاهدت فاركا هذا المنظر فطاب لها النوم، وودت لو يتاح لها أن ترقد إلى جانب تلك الأشباح، غير أن الهذيان نقلها على حين غرة إلى حالة ثانية من الرؤى فوجدت نفسها تسرع في سيرها إلى جانب أمها بيلاجيا ووجهتها المدينة، سعيًا وراء العمل؛ ولما صادفت أمها أحد المارة، مدت له يدها مستعطية وقالت: حسنة لله!

وهنا تضطرب فاركا، فتسمع صوتًا مألوفًا يقول لها بشدة وصرامة: هاتي الطفل.. هاتي الطفل.. تنامين أيتها الخسيسة؟

فتنتبه فاركا مذعورة، وتجيل النظر فيما حولها. فيتبين لها أن كل ما شاهدته لم يكن غير هذيان.. فلا طريق هناك، ولا أب ولا أم، ولا مارة ولا أشباح، وإنما هي مولاتها تقف في وسط الغرفة، وقد جاءت لترضع صغيرها.

وبينما كانت السيدة البدينة ذات الكتفين العريضتين منهمكة بطفلها، انتصبت الفتاة في مكانها جامدة واجمة، تنتظر بفارغ الصبر انتهاء مولاتها من إرضاع الطفل.. وكانت السماء في تلك الساعة تميل إلى الزرقة، فاصفر نور القنديل، وأخذ ظل السروال واللفائف يختفي ويتلاشى شيئًا فشيئًا، فهذه العلامات إنما تؤذن بقرب انبلاج الصباح.

دفعت ربة البيت الطفل إلى الفتاة، وقالت لها وهي تزرر صديرتها: هاك الطفل، ضعيه في سريره، إنه لا يفتر عن البكاء، لا شك في أنك أسأت معاملته.

أضجعت فاركا الطفل في سريره وجعلت تهزه كسابق عادتها، وكان ظل القنديل والسروال واللفائف يضمحل بالتدريج، فأحست الفتاة بالراحة لخلاصها من أثره المزعج، إلا إنها كانت تشتهي النوم كأعز أمانيها، فأسندت رأسها إلى السرير، وأخذت تهزه هزا عنيفًا لكي تطرد النوم من عينيها المتعبتين، ورأسها المثقل.

وإن هي إلا دقائق، حتى سمعت مولاها يقول:

–فاركا.. أشعلي النار في الموقد!

وكان هذا الأمر إشارة إلى أنه قد آن لها أن تنهض، وتبادر إلى العمل.

فهبت الفتاة، وأسرعت الخطى إلى الحوش تجمع الحطب، وكانت تقفز من مكان إلى آخر فرحة جذلة. ففي الحركة ما يبعد عنها شهوة النوم، وفي إشعال النار في الموقد ما يبعث الدفء في جسمها، فينبسط وجهها المتحجر، ويصحو فكرها المتبلد.

وفي هذه الأثناء، قالت ربة البيت: فاركا هيئي الشاي! ولم تكد الفتاة تضع الفحم في الموقد وتذكي فيه النار، حتى قال لها رب البيت:

– فاركا، نظفي الحذاء!

فجلست على الأرض تنظف الحذاء، فساورها سلطان النوم، واستولت عليها رغبة جامحة لتدخل رأسها في هذا الحذاء الكبير البعيد الغور، وترقد فيه ولو ساعة من الزمن، وإذا بالحذاء ينمو وينتفخ، ويستوعب الغرفة كلها. ثم ثابت الفتاة إلى رشدها، وألقت بالفرشاة جانبًا، وجعلت ترج رأسها وتفرك عينيها، وتحملق في الأشياء حتى لا تتضخم في نظرها، ولا تتزحزح من مكانها.

ثم سمعت صوتًا يقول لها: فاركا اغسلي السلالم!

فتلبي الفتاة الطلب، وتغسل السلالم، ثم تكنس الغرف، وتشعل النار في مواقد أخرى، وتذهب إلى حانوت مولاها وترتبه، وهكذا كانت تجد وتعمل بلا انقطاع غير واجدة لنفسها دقيقة واحدة للراحة والاستجمام.

لكن فاركا لم تستصعب شيئًا أكثر من عملها في المطبخ، فإذا ما وقفت تقشر البطاطا شعرت بأن قوة تجذب رأسها نحو الطاولة، وأن حبات البطاطا تتحرك أمامها وتقفز، وأن السكين تتململ في يدها وتسقط على الأرض، هذا وربة البيت البدينة تتبختر في المطبخ وتصرخ في وجهها، وتسمعها قارص الكلام.

ثم ينقضي النهار، وتتطلع الفتاة إلى النوافذ فترى الظلام ينشر ستاره على البلدة، فتضغط على صدغيها وتبتسم مسرورة، دون أن تجد لهذا السرور سببًا، وكل ما كانت تحسه هو أن العتمة تداعب عينيها الناعستين، وتعدها بنوم هنيء عاجل.

وبعد تناول القوم العشاء، بدأت السهرة وجاء الضيوف فنادى رب البيت الفتاة قائلاً: فاركا ضعي النار في الموقد، فتشعله ثم تقف على قدميها ساعة كاملة محدقة بالضيوف منتظرة الأوامر، فيلتفت إليها مولاها ويقول: فاركا أسرعي واشتري لنا ثلاث زجاجات من النبيذ!

فتثُب من مكانها وتخف إلى تلبية طلب مولاها معللة النفس بأن الحركة تطرد النعاس، وحينما تعود يبادرها مولاها بقوله: فاركا آتينا بزجاجة الفودكا على وجه السرعة.

وبعد أن غادر الضيوف المنزل، أطفأت الفتاة الأنوار، وذهب كل من في البيت إلى فراشه، وكان آخر أمر تلقته الفتاة من مولاتها: فاركا هزي سرير الطفل!

وعاد الجدجد إلى الصفير، كما عاد انعكاس القنديل الأخضر يتأرجح على السقف، وظل السروال واللفائف، يغمز عيني الفتاة شبه النائمتين، ويثقل رأسها. وعادت هي بدورها إلى الهدير:

"أهدهدك أيها الطفل وأغني لك أغنية جميلة".

ولكن الطفل لا يعبأ بأغنية فاركا، ولا بهزها لسريره، فيتابع بكاءه وصراخه، فتقع الفتاة في الهذيان من جديد، فترى الطريق الموحلة، والناس والأشباح، وأمها بيلاجيا، ووالدها أفيم، ترى كل شيء وتفقه كل شيء، باستثناء أمر واحد استعصى عليها إدراكه وهو: ماهية تلك القوة التي تقيدها من يديها وقدميها وتشدد الخناق عليها، وتحول دونها والعيش الهنيء؟

أجالت الفتاة النظر حولها باحثة عن تلك القوة الخفية. فتطلعت إلى انعكاس القنديل، وأنعمت النظر في ظل السروال واللفائف، وأرهفت السمع إلى صراخ الطفل.. وبعد أن قضت فترة أليمة في البحث والتفتيش، إذ بفمها ينفرج بابتسامة الرضا. لقد عثرت على ذلك الخصم اللدود الذي ينكد عليها حياتها.. إنه الطفل!

قهقهت فاركا، وساءلت نفسها باستغراب: كيف لم يدر بخلدي من قبل هذا الأمر التافه؟ وخيل إليها أن الجدجد، وانعكاس القنديل وظل السروال واللفائف، كلها تضحك منها وتعجب كيف لم تفقه ذلك إلا الساعة؟

وعلى ذلك، غدت فاركا أسيرة تصور مريع كاذب، فنهضت عن كرسيها، وعلى شفتيها ابتسامة عريضة، وسارت في الغرفة، وهي خاضعة لفكرة تسرها وتدغدغها!

قهقهت الفتاة ثانية، وغمزت بعينيها، وهددت الظل بإصبعها وتسللت إلى السرير، وانحنت على الطفل!

وبعد أن تم لها ما أرادته، خيم السكون على البيت، فانطرحت على الأرض تقهقه بملء شدقيها، وإن هي إلا ثوان حتى استغرقت في نوم عميق، هادئ، وكأنها قد فارقت الحياة!

من مذكرات حالم

في التاسع من شهر مايو أخذت إجازتي السنوية لمدة ثمانية وعشرين يومًا، وسألت أمين صندوق دائرتنا أن يقرضني مبلغ مئة روبل، وعقدت النية على أن أقضي تلك المدة في حياة بذخ واسعة النطاق، تجعلني أعيش بذكراها، وبذكراها فقط خلال عشر من السنوات.

أتعرف كيف تكون تلك الحياة؟ إنها لا تكون بذهابك إلى المسرح الصيفي لمشاهدة أوبريت على ضوء القمر، ثم عودتك إلى البيت في الصباح نشوان. وهي لا تعني ذهابك إلى المعارض، ومن ثم إلى حلبة سباق الخيل، حيث تأمل أن يأتيك الربح وإنما هي أن تجلس في القطار وتتجه نحو الهواء الطلق المشبع بعبق البنفسج، وزهر الكرز.. هناك حيث حبات الندى الماسية تداعب نظرك ببياضها اللطيف وبريقها الأخاذ، حيث الأراضي الفسيحة والسماء الزرقاء، حيث تنبسط أمامك الأحراج الخضراء، وتكون في عشرة الطيور، وتستمع إلى خرير المياه المنسابة في الجداول، هناك فقط تدرك ماهية الحياة. أضف إلى ذلك مقابلتين أو ثلاثًا مع صاحبات قبعات القش الواسعة، والقفازات البيضاء.

أقر بأنني حلمت بذلك كله بعد أن نلت الإجازة، وغمرني أمين الصندوق بلطفه وكرمه فأسرعت إلى بيتي وأخذت أتأهب للسفر إلى الريف.

عملت في بيت السيدة صوفيا بافلوفنا كنيغينا، وقد جرت عملية الاستئجار بأسرع مما كنت أتوقع.

بحثت عن بيت السيدة كنيغينا حال وصولي إلى القرية، فاهتديت إليه دون كبير عناء، ولما وطئت قدماي ردهة البيت الخارجية، دهشت لما شاهدت فيها من فرش حسن يدل على النعمة وسعة العيش. وقد أثارت دهشتي أكثر من الفرش. تلك الصبية المليئة الجسم التي كانت تجلس إلى جانب النضد وتشرب الشاي. وإذ وقع نظرها عليَّ واقفًا مشدوهًا قالت: أتريد شيئًا؟ قلت: المعذرة يا سيدتي. إنني.. يبدو لي أنني أخطأت الهدف، إنني أبحث عن بيت السيدة كنيغينا.

قالت: أنا هي بالذات، فما الذي تريده؟

مادت بي الأرض لدى سماعي جوابها هذا، لأنني اعتدت أن أرى في صاحبات البيوت والفيلات نسوة طاعنات في السن مقعدات، تنبعث منهن رائحة القهوة، لكنني هنا –أنقذونا يا ملائكة السماء، على حد قول هاملت– أمام امرأة حسناء، رائعة فاتنة.

قلت لها: أريد غرفة في بيتك هذا لقضاء إجازتي السنوية.

قالت: آه إن هذا لما يسرني جدًا، تفضل واجلس، لقد كتب لي صديقك بذلك، ألا تريد شايًا؟ وهل تحبه مع المربى أو مع الليمون؟

هناك نوع من النساء – والشقر منهن خاصة– يكفي أن تجلس معهن دقيقتين أو ثلاثًا حتى تظن أنك تعرفهن منذ أمد بعيد، وأن بيتهن إن هو إلا بيتك.

وهذا عين ما حدث لي من صوفيا بافلوفنا، فما إن شربت عندها

الكأس الأولى من الشاي حتى عرفت منها أنها غير متزوجة، وأنها تعيش على الفائض، وتتوقع زيارة عمتها لها، وعرفت أيضًا الأسباب التي حملتها على تأجير غرفة في بيتها الريفي هذا. وخلاصة هذه الأسباب أنه يصعب على امرأة أن تدفع بمفردها مبلغ مئة وعشرين روبلا إيجارًا سنويًا، وإنه لما يخيف امرأة أن تظل في منزل ريفي وحدها، فربما هاجمها لص في الليل على حين غرة، أو ربما دخل عليها فلاح مرعب في رائعة النهار. وعلى ذلك ليس هناك من يلوم صوفيا بافلوفنا إن هي أجرت غرفة بمنزلها لأحد من الناس، رجلاً كان أو امرأة.

وعلقت صوفيا على كلامها هذا وهي تلعق المربى: ولكنني أفضل مجاورة الرجال، فهم أقل مشاكل وأبعث على الطمأنينة.

وصفوة القول لم تمر ساعة من الزمن حتى تصافيت مع صوفيا بافلوفنا، وأصبحنا صديقين حميمين.

ثم قلت لها: تحدثنا عن كل شيء مهم، وأهملنا الأهم، فكم تريدين أجرًا للغرفة؟ سأظل عندك مدة ثمانية وعشرين يومًا، وسأتناول الغداء طبعًا، والشاي، وغيره.

قالت: وجدت موضوعًا تتحدث فيه، ادفع ما تستطيع دفعه إنني لا أؤجر الغرفة لاعتبارات مالية، وكل ما أرمي إليه، هو أن أرى الغرفة مأهولة.. أتستطيع دفع خمسة وعشرين روبلا؟

قبلت الشرط وبدأت حياتي الريفية. واللطيف في هذه الحياة أن نهارها يشبه نهارها، وليلها يماثل ليلها، وكم من لذة يجدها المرء في هذه الأيام والليالي المتواترة المتشابهة!

أستميحك العذر أيها القارئ العزيز.. إن أنا عانقتك من شدة الفرح. لقد كنت أستيقظ صباحًا غير مفكر بتاتًا في أعباء الوظيفة، فأشرب الشاي مع المربى، وفي الساعة الحادية عشرة أزور صاحبة البيت لأحييها تحية الصباح، وأشرب عندها فنجانًا من القهوة مع المر. اللذيذة الطعم، ثم نأخذ نثرثر إلى أن يحين موعد الغداء.

وأي غداء شهي تعده صوفيا بافلوفنا.. تصور نفسك خائرًا من الجوع، ثم يقدم لك كأس من النبيذ المعتق، ولحم مشوي مع المقبلات، ويتبع ذلك حساء الخضار بالزبدة، ثم غيره وغيره. وبعد أن تنتهي من غدائك تضطجع في سريرك، وتطالع رواية مسلية، في حين أن صاحبة البيت تروح وتغدو إلى جانب باب الغرفة وتقول لك: لا تنزعج.. نم!..نم!

وتنهض بعد القيلولة فتشرب الشاي مع المربى، وعندما يأتي المساء تتعشى، وإذ يأوي الناس إلى بيوتهم، ولا تعود تسمع في القرية إلا زقزقة العصافير يتخللها أحيانًا صراخ مالك الحزين، أو صفير قطار آت من بعيد يبلغ مسمعيك بك مشقة، تخرج أنت وصوفيا بافلوفنا إلى الغابة القريبة فتسرحان فيها حتى ساعة متأخرة من الليل، فتارة تلجان الدغل، وتارة أخرى تنقلان الخطى على متاريس الخط الحديدي، وإذا ما أحست الشقراء المكتنزة الجسم برعشة من برد المساء تشبثت بك، وحولت إليك

بين الفينة والأخرى وجهها الناصع البياض وقد عكس القمر عليه أشعته الفضية.. فيا له من منظر خلاب بديع!

ولم ينقض أسبوع على إقامتي عند صوفيا بافلوفنا حتى حدث ما تتوقعه أيها القارئ، وحدوث مثل هذا الأمر لا مفر منه لأية قصة لها وزنها. إنني لم أطق الصمت وفاتحت صوفيا بحبي لها، فأصغت إليَّ غير مكترثة، بل استمعت في شيء من البرودة، وكأنها توقعت ذلك منذ البداية، ولوت شفتيها بلطف كما لو كانت تريد القول: وما الداعي لكثرة التحدث في هذا الصدد؟

ولت أيام الإجازة كما تولي الثانية الواحدة، فأخذت أرتب حوائجي في الحقيبة وأودع النزل وصاحبته وداع المستوحش المتألم، وكانت صوفيا تجلس على المقعد تكفكف الدمع، فاقتربت منها وهدأت من روعها واعدًا إياها بأن أتردد عليها في بيتها القروي هذا في أيام الأعياد، وأن أزورها في موسكو في فصل الشتاء.

وقلت: متى نتحاسب يا منى القلب، وما هو المبلغ المطلوب مني؟

قالت وهي تغص بالبكاء: نتحاسب فيما بعد!

قلت: وما الداعي لهذا التأجيل؟ فالمثل يقول.. الصداقة صداقة ودع المال جانبًا.. إنني لا أود العيش على نفقتك فلا تتعبي نفسك يا صوفيا، وخبريني كم تريدين مني من الروبلات؟

أجهشت صوفيا بالبكاء وقالت وهي تسحب درج النضد: هناك

مبلغ تافه.. بوسعك أن تدفعه فيما بعد.. ثم نقبت في الدرج وأخرجت منه كشفًا وقدمته لي.

قلت: وأخيرًا، هذه هي قائمة حسابي، لقد أحسنت عملا.

ووضعت نظارتي على عيني وألقيت على الكشف نظرة عجلى.. ما هذا؟!

هذا ليس حسابي يا صوفيا.. إن هذا الكشف يتضمن مبلغًا قدره ٢١٢ روبلا و ٤٤ كوبيكًا! يخال إليَّ أنك قدمت لي حساب غيري.

قالت: كلا يا حبيبي! هذا كشف حسابك، فافحصه جيدًا.

– ولكن كيف تجمع على كل هذا المبلغ؟ إنني أوافق على دفع خمسة وعشرين روبلا للغرفة كما اتفقنا، وأوافق أيضًا على دفع ثلاثة روبلات للخادم، وأما الباقي فلا يدخل في حسابي بتاتًا.

تطلعت إليَّ صوفيا بافلوفنا بعينين باكيتين مستغربتين وقالت: إنني لا أفهمك يا شقيق الروح! ألا تثق بي؟ فاحسب إذا أردت. ألم تشرب الخمر قبل الأكل؟ أوَ لم تحتس الفودكا في أثناء الطعام؟ أوَ نسيت المربى مع القهوة والشاي والتوت البري والخضار؟ أما القهوة فلم نتفق عليها سلفًا وكنت تشربها مرات عديدة في النهار، ومع ذلك فالأمر تافه وبوسعي أن أخصم لك اثني عشر روبلا، ولتدفع لي مئتي روبل فقط!

– لكنني أرى في الكشف مبلغ خمسة وسبعين روبلا، ولم تذكري في أي باب أنفقت؟

– أنسيت في أي باب أنفقت؟ حقًا إنها لمداعبة لطيفة منك؟

تطلعت في وجه صوفيا طويلا، فكان صادقًا صافيًا، تعلوه علامات الاستغراب. فانعقد لساني في فمي، ولم أنطق بكلمة واحدة، فقدمت لها مئة روبل وحررت كمبيالة بمئة أخرى، وحملت حقيبتي على كتفي، ووليت وجهي شطر محطة سكة الحديد.

أيها السادة ألا يقرضني أحدكم مئة روبل؟!

صبي شرير

سار إيفان إيفانتش لايكين، وهو شاب لطيف المحيا، إلى جانب أنا سيميونفنا زامبيتكسكايا، وهي فتاة لها أنف مرتفع الأرنبة، وكانا يتجهان إلى شاطئ البحر، وإذ بلغاه، جلسا على مقعد لا يبعد إلا خطوات من المياه، تظلله بعض شجيرات الصفصاف الكثيفة اليافعة.

إنه لمكان رائع حقًا، فلو أتيح لكم وجلستم فيه لاستترتم عن العالم، ولما رآكم سوى الأسماك والعنكبوت، والبريق المتراكض على صفحة الماء. وكان الشابان يحملان أدوات صيد الأسماك، من عصى طويلة، وصنارات، وأنبوبة زجاجية تتزاحم فيها الديدان، وما كادا يجلسان حتى بدآ يصيدان.

ثم بادر لايكين رفيقته الحديث وهو يتلفت يمنة ويسرة: إنني جد مسرور في نهاية الأمر؛ لأننا غدونا بمفردنا، أود أن أحدثك يا أنا سيميونفنا عن أشياء كثيرة. فلما شاهدتك لأول مرة.. انتبهي! سمكة تقضم صنارتك! أقف وقتئد قيمة الحياة، وعثرت على معبودتي التي يجب عليَّ أن أقف لها

حياتي الشريفة المثمرة.. انتبهي! سمكة تقرض صنارتك! أجل! حين شاهدتك أحببتك بكل قواي.. انظري الصنارة ترتعش! أناشدك أيتها العزيزة أن تطمئني قلبي.. أيمكنني أن أعتمد على.. كلا، ليس على حب متبادل إنني لا أستحقه! بل لا أجرؤ على التفكير فيه.. أيمكنني أن أعتمد على.. اسحبي الصنارة!

ورفعت أنا يدها إلى أعلى وجذبت الصنارة، وإذا بسمكة فضية تلمع في الهواء، فما إن وقع نظرها عليها حتى صرخت تقول: رباه.. شبوط..آه..آه أسرع.. لقد أفلت!

وهكذا أفلت الشبوط، وقفز على الحشائش، ثم قفز قفزة أخرى وإذ به يعود إلى موطنه الطبيعي، ويتخبط في المياه قليلا ثم يغوص.

وأسرع لايكين في أثر السمكة، وأمسك سهوًا بيد أنا سيميونفنا بدلاً منها.. ووضعها على فمه، دون أن يعي ما يفعل، فاهتزت الفتاة، وحاولت التخلص، ولكن محاولتها جاءت متأخرة، واحتجاجها اختنق في حلقها، لأن الشفاه التقت عفوًا في قبلة حارة، أعقبتها قبل أخرى، ثم كان القسم، وكان التأكيد.. فيالها من دقائق سعيدة!

والشيء بالشيء يذكر. ليس في هذه الحياة الزمنية سعادة مطلقة؛ فالسعادة عادة تحمل في ذاتها سمًا تسمم به نفسها، أو يأتيها هذا السم من الخارج، وهذا ما حدث للفتى والفتاة إذ ما كادا يتعانقان حتى بلغ مسامعهما ضحك مزعج، فتطلعا إلى المياه مرتبكين وإذا بصبي عاري الجسم يقف في المياه حتى الخاصرة، ويرمقهما بنظرات خبيثة ويضحك، ولم

يكن هذا الصبي سوى التلميذ كوليا شقيق أنا سيميونفنا.

وقال لهما الصبي: آ..آ..آ.. رأيتكما تتعانقان، انتظرا سأقول للماماشا!

فأجابة لايكين وقد احمر وجهه خجلاً: اسمع يا كوليا، أنت صبي شريف ومن النذالة أن تراقب غيرك. ثم من الحطة واللؤم والسفالة، أن تنقل ما تراه إلى غيرك! فأملي فيك بوصفك صبيًا شريفًا نبيلاً أن...

فقاطعه الصبي النبيل قائلاً: أعطني روبلا وإلا بحت بما رأيت.. فأخرج من جيبه روبلا وقدمه إلى كوليا فتناوله هذا وضغط عليه في راحته المبتلة وصفر، وابتعد سابحًا.

وفي اليوم التالي ابتاع لايكين من المدينة أقلامًا ملونة وكرة وقدمها إلى كوليا؛ كما أن شقيقته أهدته كل ما لديها من علب فارغة، ثم قدما له معًا سلسة في طرفها رأس كلب؛ ويبدو أن هذه الهدايا المتوالية لاقت هوى في نفس الصبي الشرير. فطفق يراقب الفتى والفتاة، ويشدد عليهما الخناق. فحيثما التقيا كان هو لهما بالمرصاد، لا يفارقهما لحظة واحدة.

وحدثت مرة أن اغتاظ لايكين من مضايقة كوليا، وقال له وهو يقضم أسنانه غضبًا: يا لك من وقح.. إنك مخلوق صغير، لكنك لئيم كبير!

وانقضى شهر يوليو كله وكوليا مواظب على تعكير صفو المحبين المسكينين، وكان يهددهما دائمًا بالوشاية بهما، ولا يردعه عن ذلك إلا

الهدايا المتواصلة. وأخيرًا أخذ يحدثهما عن ساعة جيب فوعداه بها مرغمين.

وبينما كان ثلاثتهم يتناولون الغداء مع بقية الأهل، قهقه كوليا على حين غرة، وغمز لايكين بعينه وسأله: أأقول؟!

فاحمر وجه لايكين خجلاً وارتبك ارتباكًا شديدًا، حتى إنه وضع الفوطة في فمه مع قطعة الخبز. أما أنا سيميونفنا فما كان منها إلا أن نفرت من مكانها وهرعت إلى غرفة مجاورة، تاركة الأهل في حيرة من أمرها.

وظل لايكين وأنا عرضة لمضايقة الصبي وكثرة مطالبه، إلى أن هل شهر أغسطس فتقدم الشاب من أبوي الفتاة طالبًا يدها، وإذ حالفه التوفيق ونال موافقتهما فرح فرحًا عظيمًا، وكان أول ما فعله أن عدا إلى الحديقة باحثًا عن الصبي كوليا الشرير، فما إن عثر عليه حتى فرك أذنه، وكانت أنا في تلك الآونة تبحث عن كوليا في الحديقة أيضًا، فأسرعت إليه وفركت أذنه الثانية.

وللقارئ أن يتصور مدى الغبطة التي استولت على نفسي المحبين، وهما يصغيان إلى بكاء كوليا وتوسلاته وهو يقول لهما: عزيزي.. حبيبي لن أفعل.. آخ.. آخ.. سامحاني!

وقد أقر الزوجان فيما بعد بأنهما لم يتذوقا، طيلة أيام حبهما، سعادة كتلك التي غمرت نفسيهما وهما يفركان أذني الصبي الشرير!

فانكا

فانكا جوكوف صبي في التاسعة من عمره، مضت عليه ثلاثة أشهر وهو يعمل أجيرًا عند صانع الأحذية المعلم إلياخين في موسكو، وفي عشية عيد الميلاد، كان الصبي يتقلب على فراشه قلقًا مضطربًا يطلب النوم ولا يأتيه.

وإذ انبثق الفجر، وذهب معلمه مع أسرته إلى الكنيسة ليؤدوا الصلاة، أسرع فانكا إلى الخزانة، وأخرج منها دواة، ومسكة تقبض على ريشة يعلوها الصدأ، فوضعها على مقعد خشبي، وركع على ركبتيه إلى جانب المقعد، ثم نشر عليه ورقة بالية، وهم بالكتابة.

وقبل أن يخط الكلمة الأولى، تطلع إلى الباب والنافذة وجلاً، ثم رمق صورة القديس بطرف عينه، وأجال النظر في الرفوف التي تكدست عليها قوالب الأحذية، وهو يصعد النفس متقطعًا.

وشرع يكتب: "جدي العزيز.. كونستانتين ما كاريتش هأنذا أكتب لك كتابًا أحييك فيه تحية عيد الميلاد. وأسأل الله أن يمنحك الخير العميم، وأن يطيل حياتك، إذ لم يبق لي سواك بعد أن فقدت أبي وأمي".

وحول فانكا نظره إلى النافذة، وكان نور الشمعة يتلألأ عليها، فتخيل جده الذي يعمل حارسًا ليليًا في بيت السيد جيفاروف، منتصبًا أمامه، وكان جده هذا، رجلاً قصير القامة، نحيف الجسم، في الخامسة والستين من عمره، إلا إنه ما فتئ رشيقًا نشيطًا، لا تفارق ثغره الابتسامة، ففي النهار يرقد في المطبخ، أو يداعب الطاهيات، وفي الليل يلتف بفروته

المهلهلة ويدور حول منزل مولاه ضاربًا الأرض بعصاه، يتبعه كلباه "كاشتانكا" و"فيون"، وهذا الأخير أسود اللون، طويل الجسم، قريب الشبه بابن عرس، دقيق النظر، مدلل محبوب، ويتمتع بسمعة طيبة بين أربابه والغرباء، مع أنه كان يخفي تحت لطفه وتواضعه حقدًا وخبثًا غريبين، وليس أقدر منه في التسلل إلى حيث تدفعه حاسة الشم، كما أنه ماهر جدًا في التعلق بأرجل الناس، وسرقة الدجاج من الفلاحين. فطالما ركل وجلد عقابًا له على وقاحته، حتى إن بعضهم علقه من عنقه مرتين، وبالرغم من ذلك كله، كان "فيون" ينهض وكأن شيئًا لم يحدث له!

تصور فانكا جده واقفًا حسب عادته عند بوابة المنزل، موجهًا نظره إلى نوافذ الكنيسة الحمراوية اللون، وقد انكمش على نفسه من شدة البرد، فراح يضرب الأرض بحذائه الغليظ ويفرك يديه، ويسعل، ويمازح الطاهيات والخادمات، ويقرصهن في أيديهن مداعبًا مماجنًا، ثم يخرج من جيبه علبة السعوط ويعرضها عليهن متسائلاً: أتردن الاستنشاق؟ فتأخذ النسوة القليل من السعوط ويستنشقنه، وسرعان ما ينهمكن في العطس، وجد فانكا يضحك مسرورًا ويصرخ: هلكت من الصقيع.

ثم يضع السعوط عند أنف الكلبة "كاشتانكا" فتعطس ساخطة مستاءة، ويضعه عند أنف الكلب "فيون" فيرى هذا أن من الكياسة والتواضع ألا يعطس ويكتفي بأن يلوي ذنبه. وكان الطقس إذ ذاك جميلا، والهواء ساكنًا نديًا. وإذ يقبل الليل وتغرق القرية في لجته، تبدو البيوت بسطوحها البيضاء، والمداخن تبعث الدخان أعمدة. والأشجار وقد

اتشحت برداء فضي، وتدلت عروقها تحمل ذوات الصقيع، والسماء تعج بالنجوم التي تغامز بعضها فرحة مغتبطة، والمجرة بدت جلية واضحة، وكأنها غسلت عشية العيد، وفركت بالثلج!

تنفس فانكا قليلاً، وتابع كتابة رسالته إلى جده فقال:

"اقتادني معلمي أمس من شعري إلى الحوش، وانهال عليَّ ضربًا بالسير لأنني هززت طفله عفوًا فغفا. وحدث يوم الأحد الفائت أن طلبت مني معلمتي أن أنظف لها سمكة، فبدأت بتنظيفها من ذنبها، فحنقت عليَّ، وانتزعتها من يدي، وزجت رأسها في فمي.

إن غذائي في هذا البيت، يتألف من خبز في الصباح، وبرغل عند الظهر، وخبز في المساء، ولا أعرف للشاي والحساء طعمًا، أما نومي ففي الممر حيث أكون عرضة للبرد القارص.

وأخبرك يا جدي أن معلمي يهزؤون بي، ويرسلونني إلى الخمارة لكي أحضر لهم الفودكا، ويسألونني أن أسرق لهم الخيار من بيت معلمي، وهذا يضربني بكل شيء يقع في يده، لأقل هفوة تبدو مني.

أي جدي العزيز.. ارحمني بالله عليك، وخذني من هذا البيت إليك، فليس عندي أية حيلة للخلاص، خذني من هذا المكان، أنا أقبل قدميك وأدعو لك دائمًا، وإن لم تفعل، فإنني لا محالة هالك".

لوى فانكا فمه. ومسح عينيه بقبضته القذرة، وغصَّ بالبكاء، ثم واصل الكتابة:

"وسأفرك لك يا جدي الدخان، وأسأل رضاك، وإن خالفت لك كلمة فاضربني، وإن تبين لك أنني لن أجد عملا لديك، فائذن لي بالعمل في مسح أحذية متعهد القرية، أو أن أرعى الماعز بدلا من فيدكا.

أجل يا جدي العزيز! ليس لي من منقذ سواك. لقد حاولت الفرار مرة إلى قريتك؛ لكنني عدلت عن ذلك، لأنني لا أملك حذاء أقي به قدمي من الصقيع.. خذني يا جدي وكن على ثقة بأنني إذا ما بلغت الرشد فسأقابل جميلك بالمثل، وسأعمل على إعاشتك، ولا أدع أحدًا يسيء إليك، وإن توفاك الله، فإنني سأصلي لروحك كما أصلي لروح أمي.

إن موسكو لمدينة كبيرة، وبيوتها فخمة وخيولها كثيرة، لكنني لا أجد فيها خرافًا، وكلابها غير مؤذية، وأطفالها لا يطوفون بالأحياء في ليالي الأعياد، ولا يسمح لهم بالاشتراك في التراتيل الكنسية.

ورأيت مرة في واجهة حانوت، صنانير بعصيها، يستطيع المرء أن يصطاد بها أية سمكة كانت ولو بلغ وزنها الرطل. وشاهدت في بعض المخازن أسلحة مختلفة الأشكال بديعة الصنع، جميلة المنظر، والله يعلم كم تساوي من مئات الروبلات. وشاهدت في بعض حوانيت اللحامين عددًا كبيرًا من الدراج، والأرانب، ودجاج الأحراج، والعجيب أن الناس لا يستفهمون أبدًا عمن اصطاد هذه الطيور!

جدي العزيز.. أرجوك أن تتذكرني وقت أن ينصب السادة شجرة عيد الميلاد، واقتطف لي منها جوزة مذهبة، واحفظها في صندوق أخضر؛ والسيدة أولغا إيغناتيفنا لا تعارضك إذا علمت أن الجوزة لي".

وجه الطفل نظره مرة أخرى صوب النافذة وعاودته الذكريات، وقت أن كان يذهب مع جده لجلب شجرة عيد الميلاد، فيالها من أيام طيبة! كانا يذهبان معًا إلى الغابة، وسط الثلوج، فيشعل جده غليونه، ويستنشق الدخان طويلا، ويضحك من حفيده الذي يرتعش من البرد، في حين أن الشجيرات الفتية المكتسية بالصقيع تقف جامدة لا تدري من منها سيكون نصيبه الموت.. وإذ يمر بهما أرنب منطلق كالسهم، يصرخ جده بأعلى صوته: أمسك، أمسك.. آه يا ذنب الشيطان! وبعد أن يقطع جده الشجرة، يجرها إلى بيت سادته، وهناك يقبل الكل على تنظيفها وترتيبها، وتكون أكثرهم اهتمامًا بها السيدة أولغا إيغناتيفنا، حبيبة فانكا.

كانت أم فانكا تخدم في هذا البيت، وكانت السيدة أولغا تقدم لطفل خادمتها اللبن، وتعلمه القراءة والكتابة والعد حتى المائة، والرقص أيضًا، وحين وافى أمه الأجل أحالت السيدة أولغا الطفل اليتيم إلى العمل مع جده في المطبخ، ومن ثم نقل إلى موسكو ليعمل عند صانع الأحذية "المعلم إلياخين".

وتابع فانكا كتابة رسالته إلى جده وقال:

"احضر إلى موسكو يا جدي العزيز، أتوسل إليك من أجل المسيح أن تنقلني من هذا المكان، أشفق على هذا اليتيم التعس. إن كل من في هذا البيت يضربني، وأنا أشتهي الطعام، وأكاد أهلك من الضجر، ولا أنفك عن النحيب، وذرف الدموع. وحدث مؤخرًا، أن ضربني معلمي على رأسي بقالب الحذاء، فوقعت على الأرض ولم أستطع النهوض، إلا بكل

مشقة آه.. لقد ضيعت حياتي! إنها لأسوأ من حياة الكلاب!

سلامي إلى كل من هيلين، وإيغور الأكتع، والسائق ساشا، وأرجوك ألا تعطي أحدًا "مزيكتي".. احضر يا جدي وابق لحفيدك المطيع إيفان جوكوف".

وطوى فانكا الرسالة، ووضعها في مغلف كان ابتاعه بكوبيك واحد.. وبعد أن أعمل فكره قليلاً، غمس الريشة في الدواة، وكتب على الغلاف:

"إلى قرية جدي!"

ثم حك رأسه بطرف الريشة، وأضاف إلى العنوان:

"كونستانتين ما كاريتش"

كان سرور فانكا عظيمًا لأن أحدًا لم يزعجه في أثناء كتابة رسالته هذه، فهب من مكانه، واختطف قبعته، ووضعها على رأسه، وهرع إلى الشارع، في قميصه، ساهيًا عن لبس معطفه.

كان رواد حانوت اللحام الذين قابلهم فانكا بالأمس قد أحاطوه علمًا أن الرسائل تلقى عادة في صناديق البريد، ثم تجمع منها وتوزع إلى جميع أنحاء العالم، على زحافات تجرها خيول مطهمة، ترن في أعناقها الأجراس، ويقودها سواقون سكارى وهكذا أقبل فانكا على أول صندوق للبريد، وأدخل رسالته الثمينة في شقه.

وعاد الصبي إلى البيت، واستلقى على فراشه تهدهده الأماني العذبة، وبعد ساعة من الزمن، أغمض جفنيه، واستسلم إلى سلطان الكرى،

فشاهد في نومه جده يجلس على سطح الموقد وقد تدلت قدماه، وأمسك بيده رسالة فانكا يقرؤها على طاهيات البيت وخادماته، في حين يسير الكلب "فيون" إلى جانب الموقد، وهو يهز ذنبه.

في الحمَّام

كان سيد بدين يغتسل في الحمام، وإذ لمح من خلال الضباب رجلاً طويلاً نحيفًا، له لحية يهودية، ويعلق على صدره صليبًا، صاح فيه قائلاً: أيها الحمامي! ايتني بالماء الساخن. فأجابه الرجل: ليس من شأني جلب المياه الساخنة يا سيدي، فإنني لست بحمامي، وإنما أنا حجام، فهل تود استعمال أقداح الحجامة؟ ارتاح السيد البدين لهذا السؤال، وألقى نظرة عجلى على وركيه الحمراوين، وأجاب: هات أقداح الحجامة، ولعل في استعمالها بعض الفائدة.. فأسرع الحجام إلى غرفة الاستراحة. وعاد بأدواته، ولم تمض خمس دقائق، حتى كانت عشرة أقداح عالقة على صدر السيد وظهره.

وبينما كان الحجام يضع القدح الحادي عشر، قال لزبونه: أتذكر يا سيدي وقت أن زرتنا يوم السبت الماضي وقد طلبت مني بعد أن اغتسلت أن أنزع الثآليل عن أصابع قدميك؟ أنا الحجام ميخايلو. أتذكر حين سألتني عن الفتيات الخاطبات؟ فأجابه: أجل أذكر ذلك، وما الذي تريده؟ قال: لا أريد شيئًا، لكنني أود إطلاعك على ما أضمره لك من ملامة يا سيدي.. برغم ما في ذلك من تعرض لوقوعي في الخطيئة وأنا مقبل على تنازل القربان، فما أود أن أبوح به إليك يا سيدي هو أن فتياتنا في الماضي

كن يطمحن في الزواج من رجل قوي، صارم، ثري، متدين. وأما فتيات هذه الأيام فينهجن طرقًا معوجة شائكة. إنهن يبحثن عن الرجال المتعلمين فقط. قدم لهن رجالا متعلمين، والويل لك إن عرفتهن إلى رجال من التجار أو الموظفين!

والمتعلمون يا سيدي على أصناف؛ فمنهم من يبلغ أعلى المناصب، ومنهم من يظل طيلة حياته يحبر الأوراق ثم يموت فقيرًا معدمًا غير مدخر ثمنًا لنعشه. ومن هؤلاء الناس، وعددهم لا يستهان به، شاب متعلم يعمل في دائرة البرق، تراه يحذق كل الأمور حتى اختلاق البرقيات! لكنك إذا نظرت إليه، لا يسعك إلا أن تتألم وتأسى لبؤسه، وهو من زبائن هذا الحمام الذين يغتسلون بالماء دون الصابون!

وهنا قاطعه رجل بصوت جهوري فيه بحة، وكان يجلس على المصطبة في الجوار. وقال:

– عامل البرق هذا فقير لكنه شريف، وإننا لنفخر بمثل هؤلاء الناس ونعتز، فالعلم مع الفقر دليل على سمو النفس، أفهمت ذلك أيها الجاهل؟

تطلع ميخايلو بطرف عينه إلى مصدر الصوت فرأى رجلاً هزيلاً، برزت عظام جسمه بروزًا واضحًا فبدا صدره وظهره وكأنهما مؤلفان من جلد وأضلع فقط، وكان شعره الطويل يتدلى على وجهه، فغطاه ولم تظهر منه سوى عينين سددتها إلى الحجام وهما تحملان كل ما في النفس من حقد وازدراء.

فتمتم ميخايلو قائلاً: أأنت منهم! أأنت من أصحاب الشعر الطويل؟! ومن ذوي الأفكار؟ يا للفظاعة لقد تكاثر هؤلاء القوم فتعذر اقتناصهم كلهم.. هه.. إن الأحاديث المسيحية تزعج هذا الهيكل العظمي.. إنه يتحمس للمتعلمين!

ثم تلفت الحجام إلى زبونه وقال له: إن فتيات اليوم يملن إلى مثل هذا الرجل.. أرأيت أمرًا أبشع من هذا الأمر؟ لقد دعتني في الخريف الماضي ابنة أحد القسس وقالت لي: ميشيل –وربات البيوت اللائي أخدمهن في زينتهن ينعتني بهذا الاسم– هل لك أن تبحث لي يا ميشيل عن عريس من أصحاب الأقلام؟! ولحسن حظها كنت أعرف أحدهم واسمه بورفيري إيميليانيتش؛ كان يقبع دائمًا في إحدى الخمارات ويخيف روادها بنشر أسمائهم في الصحف. وكان كلما أتاه صاحب الخمارة ليقبض ثمن الفودكا، همس بورفيري في أذنه قائلاً: أتطلب مني دراهم؟ ألا تعرف من أكون؟ لا تنس أنني قادر على أن أعلن عنك في الصحف أنك من كبار المجرمين! ولما كان بورفيري هذا شابًا شبه عار، رث الثياب، سهل عليَّ إغراؤه بمال ابنة القسيس. أطلعته على رسمها، واقتدته إليها بعد أن استعرت له ثيابًا جديدة. غير أن الحظ لم يواته، فلما رأته الآنسة أشاحت بوجهها عنه قائلة: إنني لا أرى في محياه أمارات الحزن والألم! والواقع أن ابنة القسيس نفسها لا تعرف من من الرجال تريد.

وعاد الرجل صاحب الصوت الذي فيه بحة، وعلق على حديث ميخايلو قائلاً: إنك تفتري على الصحافة أيها الخسيس. فأجاب الحجام:

أتنعتني بالخسيس؟ إنه لمن حسن طالعك أنني مقبل على تناول القربان وإلا لأسمعتك كلامًا جارحًا. ألعلك من طبقة الكتابة أيضًا؟

قال: كلا، لكنني أطلب منك ألا تتحدث عما لا تدرك كنهه. لقد كان الكتاب في روسيا كثيرين، وقدموا لبلادهم خدمات جليلة، بل إنهم ثقفوا العالم قاطبة؛ ولذا يجب علينا أن نذكرهم مفتخرين بهم لا شاتمين؛ وإنني أعني بهؤلاء الكتاب لا العلمانيين فحسب بل الروحيين أيضًا. فأجاب الحجام: إن الكتاب الروحيين لا يعنون بأمور كالتي تدافع عنها.

قال: حقًّا إنك لا تفقه ما تتفوه به، إن ديمتري دوستوفسكي وإينوكيني خرسونسكي وفيلاريت موسكوسكي، وغيرهم من رؤساء الكنيسة ساهموا مساهمة فعالة في نشر العلوم والمعارف.

فنظر ميخايلو بطرف عينه إلى خصمه ثانية ثم حول وجهه نحوه بسرعة وصاح فيه: يبدو لي أنك من أولئك يا سيدي! من ذوي الأفكار! وليس من العبث أنك قد أطلت شعر رأسك! أجل إننا أدرى بهذه الأمور، وسنريك الآن من تكون!

ثم نهض الحجام وقال لزبونه: دع يا سيدي الأقداح على جسمك، وسأعود إليك على وجه السرعة. وخرج ميخايلو يجر وراءه سرواله المبتل، وذهب توا إلى الباب الخارجي، حيث كان يجلس رجل قزم يبيع الصابون، خاطبه قائلاً: سيخرج من الحمام الآن رجل طويل الشعر، فعليك أن تراقبه، إنه يحرض المستحمين، أفهمت؟ إنه من ذوي الأفكار.. أسرع في طلب نازار زاخاريتش! فأجابه القزم: أخبر الصبية بالأمر. فالتفت ميخايلو

إلى الصبية الواقفين عند ألبسة المستحمين، وقال لهم: سيخرج من الحمام الآن رجل طويل الشعر، إنه يبث في الناس روح التمرد! تتبعوا أثره وأسرعوا في إخبار صاحبة الحمام لكي تبعث في طلب نازار زاخاريتش ليحقق معه! إنه رجل خطر، يتلفظ بعبارات مخيفة.. إنه من ذوي الأفكار!

فما إن سمع الصبية هذا الكلام حتى ارتسمت على محياهم علامات الارتباك، وقالوا للحجام: أين هو هذا الرجل ذو الشعر الطويل؟ إننا لم نر بين الزبائن رجلاً ينطبق عليه وصفك هذا، فالذين نزعوا ألبستهم هنا هم ستة أشخاص: تتريان، وتاجران، ووجيه، وشماس.. فلعلك تقصد بصاحب الشعر الطويل أبانا الشماس؟ فأجاب ميخايلو: إنني أعني ما أقوله، فلا تحاولوا تضليلي أيها الشياطين. ثم نظر إلى ألبسة الشماس، ولمس رداءه الكهنوتي، فساورته الشكوك وسأل الصبية: بم تميزون صاحب هذه الألبسة؟ فأجابوه: إنه نحيف، أشقر الشعر، له لحية كثة، ويسعل كثيرًا.. فامتقع لون الحجام لدى سماعه هذه الجواب، وراح يوبخ نفسه قائلاً: إنني هاجمت شخصية قدسية لها مكانتها في الكنيسة فيا للخطيئة.. وما عسى أن أعمل الآن وأنا مقدم على تناول القربان.. المغفرة يا إلهي لقد أخطأت وعليَّ أن أذهب إلى أبينا الشماس أسأله السماح.

تألم مخايلو لما حدث له تألماً شديدًا، وعاد أدراجه إلى داخل الحمام بخطوات غير متوازنة، فشاهد الشماس وقد أفَجَّ رجليه إلى جانب الصنبور وهو يصب الماء الساخن بالطاس على جسمه، فاقترب منه وخاطبه بصوت باكٍ: أسألك السماح أيها الشماس؛ من أجل المسيح سامح هذا الشقي!

فالتفت إليه الشماس مستغربًا وقال: علامَ أسامحك؟

فزفر الحجام زفرة طويلة، وجثا عند قدمي الشماس وقال:

– لقد ظننت.. أن في رأسك أفكارًا!

الفهرس